الفصل الأول

علم الدلالة فقه اللغوي التاريخي

تمتد المرحلة الأولى من تاريخ علم الدلالة المعجمي من عام ١٨٣٠ إلى عام ١٩٣٠. وكانت سمتها البارزة التوجه التاريخي في البحث الدلالي المعجمي؛ إذ كان الاهتمام ينحصر في التغيرات التي تطرأ على معنى المفردة؛ أي في تحديد التغير الدلالي وتصنيفه وتفسيره. وقد نتج عن هذه التوجهات البحثية الثلاثة عدد كبير من الطروحات النظرية والدراسات الوصفية التجريبية. بيد أن معظمها طوته صفحة النسيان الآن ولم يعد أحد يذكرها. أما من الناحية العملية فلن نجد الأعمال القديمة جدا إلا في أقدم المكتبات العلمية وأكبرها، وإن وجدناها فسنصطدم بعائق اللغة؛ وذلك أن معظم هذه الدراسات مكتوبة إما بالألمانية أو الفرنسية، وهما لغتان لا يتقنهما كثير من الناس. والنتيجة أن بعض المواضيع التي درست دراسة مستفيضة في إطار الرؤى والأفكار اللغوية القديمة يجري فيما بعد إعادة خلقها من جديد وليس اكتشافها فحسب. وسنرى في فصول قادمة الدليل على ذلك.

ومن الجوانب التي تدل على عدم معرفتنا بهذه الدراسات أن توجهها ليس معروفا لدينا بمسمى يتفق عليه الجميع. فقد نتحدث عن "علم الدلالة التاريخي التقليدي" في حال أردنا أن نبرز التوجه الموضوعي والمنهجي الرئيس أو عن "علم الدلالة قبل البنيوي" إن أردنا التركيز على موقعها الزمني في تاريخ هذا العلم. غير أننا في هذا الكتاب سنختار مسمى " علم الدلالة فقه اللغوي التاريخي historical–philological semantics " لعدة أسباب. أولها أننا إذا نظرنا إلى فقه اللغة بصفته علما مقارنا — أي يقوم دراسة العلاقات بين اللغات المرتبطة بأصل واحد وإعادة بناء اللغات الأصلية – فإننا سرعان ما سنلحظ أن علم الدلالة التاريخي التقليدي نشأ على هامش البحث في الروابط التاريخية بين اللغات. والسبب الثاني أننا إذا نظرنا إلى فقه اللغة على أنه دراسة الخلفية الثقافية والتاريخية التي لا غنى عنها لنصل إلى فهم كاف للنصوص المهمة لأي عصر من العصور سواء الأدبية منها أو غير الأدبية، فإننا سنجد أن علم الدلالة التاريخي التقليدي كذلك يتميز بمفهومه التفسيري للمعنى، وهو مفهوم يهتم

باكتشاف المعاني المتأصلة في المواد اللغوية القديمة. بيد أن هذه الأمور ستتضح في ثنايا هذا الفصل. ولكن يجب في البداية أن نتعرف على ما جاء قبل علم الدلالة فقه اللغوي التاريخي.

١/١- نشأة علم الدلالة المعجمي :

ظهر علم الدلالة المعجمي علما أكاديميا مستقلا في بداية القرن التاسع عشر؛ ولكن ذلك لا يعني أن قضايا المعنى لم تخضع قبل ذلك للنقاش. ويهمنا هنا ثلاثة مذاهب وهي: علم التأثيل الظني (speculative etymology)، والبلاغة، وتأليف المعاجم. ولننظر الآن بإيجاز إلى ما يندرج تحت كل منها وإلى دورها في ظهور علم الدلالة المعجمي بوصفه مشروعا أكاديميا.

١/١/١- علم التأثيل الظني :

لنتمكن من فهم علم الاشتقاق أو التأثيل الظني الذي ساد قبل فقه اللغة المقارن في بداية القرن التاسع عشر يجب أن نعود إلى العصر القديم. ففي المحاورة التي كتبها أفلاطون بعنوان كراتيلوس (والتي يمكن اعتبارها أقدم مقالة عن فلسفة اللغة وصلت إلينا) ينشأ جدال بين هيرموجينز وسقراط وكراتيلوس حول الرأي الذي يقول بأن اللغة ليست نتاج العرف والاصطلاح وإنما تخضع لمعيار الملاءمة (appropriateness) (كراتيلوس ٣٨٣أ و ٣٨٣ب و ج في ترجمة فاولر ١٩٦٣).

يقول كراتيلوس الذي نراه هنا يا سقراط إن لكل شيء اسما خاصا يناسبه يأتي وفق الطبيعة وبأن الاسم ليس ما يصطلح الناس علي أن يسموا به شيئا؛ أي ليس مجرد صوت منطوق يطلقونه على ذلك الشيء، وإنما هناك صحة متأصلة في الأسماء. وهذا ينطبق على كل البشر من اليونان وغير اليونان. [...] أما أنا يا سقراط فقد تحدثت مع كراتيلوس وغيره مرارا، ولم أستطع أن أصل إلى القول بأن في الأسماء أي صحة سوى العرف وما اصطلح عليه الناس. إذ يبدو لي أن أي اسم تطلقه على أي شيء هو اسمه الصحيح. وإذا نبذت ذلك الاسم واستبدلته بغيره فإن الاسم الثاني لا يقل عن الأول في صحته.

ووفقا للنظرية الطبيعية التي يدافع عنها كراتيلوس، فإنه ينبغي للأسماء أن تكون صحيحة بمعنى أساسي جدا، بمعني أنها تعبر عن الجوهر الطبيعي للشيء المسمى. فمثلا؛ لماذا كان theous اسم "الإله" [في اللغة اليونانية]؟ هذا ما يفسره سقراط لنا ضمن عدد من الأمثلة التي يسوقها لتوضيح الطبيعة غير الاصطلاحية وغير الاعتباطية للكلمات في المقطع التالي:

أظن أن الأولين من اليونان لم يؤمنوا إلا بتلك الآلهة التي آمن بها الأجانب في ذلك الوقت وهي الشمس والقمر والأرض والنجوم والسماء. ولاحظوا أنها جميعا تتحرك في مساراتها وتجري، لذا سموها theous نسبة إلى طبيعتها الجارية thein [باللغة اليونانية]؛ وعندما تعرفوا على معبودات أخرى أطلقوا عليها كلها الاسم ذاته، أي theous.

وإذا افترضنا أن الكلمات تصف جوهر الأشياء التي تسميها وسلمنا في الوقت نفسه بأن الشكل الخارجي للكلمة (كما وصل إلينا) قد يخفي تكوينه الأصلي، فإن التحليل التأثيلي للكلمة سيكون على صورة بحث عن المعانى الأصلية الخفية للكلمات. وبالرغم من أن محاورة أفلاطون لا تقدم أدلة قاطعة بشأن القضايا التي تطرحها، فإن هذا النوع من التأثيل الظني كان مقبولا تماما حتى ظهر فقه اللغة المقارن. وربما يوضح المثال التالي من العصور الوسطى مستوى التفكير الخيالي الذي وصلوا إليه.

تربط التحليلات التأثيلية لكلمة mors اللاتينية وهي بمعني "الموت" وقد ظهرت في العصور القديمة، تربط بينها وبين كلمتين: إحداهما amarus وتعني مر والأخري Mars وهو اسم إله الحرب الذي يميت الأحياء. وخلاف ذلك فقد استلهم كتاب العصور الوسطى تفسيرهم للكلمة من علم اللاهوت المسيحي. وكانت رسالة Hypomnesticon التي كتبت في القرن الخامس سابقة في الربط بين كلمتي mors و morsus "قضمة". وهذا هو تحليل أصل هذه الكلمة كرره العديد من المؤلفين: أصبح الموت للجنس البشري حقيقة عندما أقنعت الحية آدم وحواء في جنة عدن بأن يقتضما قضمة من الفاكهة المحرمة فطردهما الله من فردوس الأرض لأكلهما من شجرة العلم بالخير والشر.

وقياسا علي فهمنا المعاصر، فإن مثل هذه التحليلات التأثيلية تبدو لنا مضحكة وعجيبة في الوقت نفسه. ولكن لماذا نري هذه التحليلات غير علمية ؟ ما الذي يميز التحليل التأثيلي الظني عن التحليل العلمي؟ يتميز التحليل الظني عادة كما عهدناه بصفتين: الأولى أنه مبني على المقارنة بين المعاني مع تجاوزه كثيرا فيما يتعلق بأشكال الكلمات قيد المقارنة، والثانية أن ما يقارنونه هو كلمات من لغة واحدة. ويحاولون تقليص اسم ما إلى كلمات أخرى موجودة دون أي قيد على التحولات الشكلية التي قد تطرأ على الكلمات. ومعيار النجاح هنا هو ما إذا كان معنى الشكل الذي أعيد بناؤه يتوافق مع معنى الكلمة المراد تحليلها وليس ما إذا كان الرابط بينهما ممكنا من حيث الشكل.

أما مذهب التحليل التأثيلي الذي يتوافق ويتناسب مع نموذج فقه اللغة المقارن الذي تطور في القرن التاسع عشر، فله صفات مغايرة تماما لصفات المذهب الظني. فهو أولا مبني على المقارنة بين أشكال الكلمات لا بين معانيها. وثانيا يركز على المقارنة بين الاشكال التي بينها رابط لكلمات في لغات مختلفة. فمثلا توحي لنا المقارنة النظامية لكلمة theous اليونانية مع كلمات مثل daeva التي تعني "الشيطان" في الفارسية القديمة و dues التي تعني "إله" في اللاتينية و dia في اللغة الإيرلندية القديمة و tivar التي تعني "آلهة" في الإسكندنافية القديمة و deiw (a)s في البروسية القديمة، توحي لنا بأن هذه الأشكال لها أصل هندي اوروبي واحد. فأصل الكلمة اليونانية مثلا لا نجده في اللغة اليونانية نفسها، بل في اللغة الأولى التي يمكن لنا إعادة بنائها بمقارنة الأشكال المترابطة. بالإضافة إلى ذلك، فإن عمليات إعادة البناء هذه تخضع لقيود شكلية؛ إذ لا يمكنك أن تربط بين الشكل الجرماني من الإسكندنافية القديمة وبين غيره إلا إذا بينت أن الصوت أو الحرف t في بداية الكلمات في اللغة الجرمانية يقابله بانتظام الصوت d في اللغة اللاتينية، وكذلك بالمثل في اللغات الأخرى. هذا هو مفهوم القانون الصوتي: أن الصوت الذي نعينه d في اللغة الهندوأوروبية ويظهر كذلك d في اللاتينية وغيرها من اللغات يظهر بانتظام t في اللغات الجرمانية. ومن هنا فإن كلمة decem "عشرة" اللاتينية تقابل ten في الإنجليزية و tien في الهولندية و taihun في اللغة القوطية.

وهكذا فقد رفض فقه اللغة المقارن الذي ظهرت معه اللغويات ذات الصبغة العلمية في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، رفض بصراحة ذلك النوع من التفكير المتعلق بمعنى الكلمة والذي كان جزءا من مذهب التأثيل الظني. ولكن أين سيكون مكان علم الدلالة المعجمي التاريخي في هذا المذهب المقارن الجديد؟ تأتي اللغويات بصفتها علما تجريبيا مستقلا في صورة بحث تاريخي. وبالتالي يمكننا – بادئ ذي بدء – القول بأن ظهور علم الدلالة اللغوي التاريخي في القرن التاسع عشر ما هو إلا جانب واحد من جوانب الرؤية التاريخية التطورية خلال المرحلة الأولى من تطور اللغويات الحديثة. بيد أن ظهور علم الدلالة ضمن إطار ذلك العلم اللغوي الناشئ لم يكن مجرد مسألة اكتمال بل ضرورة. ولم يعكف الباحثون على دراسة المعنى لمجرد الرغبة في دراسة التغير اللغوي من جميع جوانبه، وإنما ظهر لهم أن المعرفة التامة بآليات التغير الدلالي أمر لابد منه للقيام ببحث تاريخي واف في الجوانب الشكلية للغة. وبعبارة أدق ظهرت تلك الآليات حصنا منيعا في وجه التحليلات التأثيلية الغريبة والبعيدة عن الواقع على النحو الذي أسلفنا النقاش فيه. ولننظر الآن إلى أحد الأمثلة لنصل إلى فهم أفضل لهذا الكلام.

إن من شروط منهجية إعادة البناء اللغوي المقارنة أن تكون صور الكلمات من اللغات المختلفة التي سنقارن بينها مترابطة دلاليا. لكن مثل هذه العلاقة ليست دائما واضحة لنا. فعلى سبيل المثال في كل اللغات الجرمانية القديمة نجد شبها شكليا منتظما إلى حد كبير بين الكلمات التي تدل على مفهوم beech (شاطئ) و تلك التي تدل على مفاهيم مثل book و letter. قارن مثلا كلمة buohha (beech) و buoh (book) في الجرمانية العليا القديمة أو boka (beech) و bok (book أو لوح الكتابة) في الساكسونية القديمة. و حتى نبرر هنا إعادة بناء هذه الأشكال على أن لها جميعا صلة بجذر جرماني أولي واحد يلزمنا توضيح الرابط الدلالي بينها. وفي هذه الحالة – بوجه خاص – يمكن أن يصاحب وعينا بالعلاقة الكنائية المتكررة بين أسماء المواد وأسماء الأشياء المصنوعة من هذه المواد (فكر مثلا في الزجاج والحديد والفلين والورق) يمكن أن يصاحب ذلك دليل من الآثار القديمة يبين أن الألواح الخشبية كانت

تستخدم للكتابة. وإذا اعتبرنا أن عددا من الصور اللفظية لها أصل واحد فإن ذلك يتطلب منا القدرة على إنشاء علاقة دلالية بينها. وهذا بدوره يستلزم معرفة بآليات التغير الدلالي العادية (وللسياق التاريخي). وهكذا لم يمتهن علم الدلالة التاريخي علي أنه غاية في ذاته، وإنما أيضا بوصفه علما مساندا لإعادة البناء اللغوي التاريخي.

وهكذا فإن المذهب القديم قدم التاريخ في التأثيل الظني لمعاني الكلمات تم رفضه لصالح مقاربة ستحدد وتصنف الآليات النظامية للتغير الدلالي. وهذا هو العامل الأول في ظهور التغير الدلالي: والمعرفة الجيدة بآليات التغير الدلالي ستحد من الاشتقاقات الدلالية الخيالية التقليدية. ولكن من أين نبدأ؟ إذا كان هذا هو البرنامج المبدئي لعلم الدلالة المعجمي، فمن أين يبدأ البحث عن تلك الآليات؟ هنا يأتي دور المذهب البلاغي.

٢/١/١- المذهب البلاغي :

كانت البلاغة (وهي مهارة استخدام اللغة لبلوغ غاية محددة ولإقناع الآخرين على وجه التحديد) جزءا تقليديا من المناهج الدراسية منذ العصور القديمة مرورا بالعصور الوسطى وحتى العصور الحديثة. ومن وجهة نظر حديثة يمكنك أن تقارن بينها وبين مقررات كتابة المقالة والخطابة (أي أن تقارنها بصورة أكثر تجريدا بالتداولية التطبيقية). وكانت البلاغة إحدى سبع مواد من الفنون الحرة التي تنقسم إلى مجموعتين: المجموعة الأولى وتسمى المجموعة الدنيا وترتبط بما نسميه اليوم باسم "الفنون" وتتكون من قواعد اللغة والجدل المنطقي والبلاغة. والمجموعة الثانية وتسمى المجموعة العليا وترتبط بما نسميه العلوم وتشمل علم الحساب والموسيقى والهندسة والفلك. أما البلاغة فكانت تنقسم بدورها إلى خمسة أقسام: الابتكار (خلق الأفكار للكلام أو الكتابة) والترتيب (تنظيم النص) والأسلوب (صياغة الأفكار) والحفظ والإلقاء. ومن وجهة نظر دلالية فإن المكون الأسلوبي هو المهم بوجه خاص. ولقد طور المذهب البلاغي (الذي يتخذ فعليا شكل سلسلة طويلة من الرسائل و المقررات الدراسية) عددا كبيرا من المفاهيم لتحديد الاستخدامات المجازية في الكلام أو المحسنات البلاغية: أي طرق الصياغة التي تزين النص وتنمقه أو تجذب اهتمام الجمهور. وبعض هذه الوسائل

البلاغية شكلية بطبيعتها كالجناس الاستهلالي، وهو تكرار صوت واحد في بداية كلمات عدة متوالية [كما جاء في الشطر الأول من قول امرئ القيس في معلقته: مِكرّ مِفرّ مُقبل مُدبر مَعًا]. أما الوسائل الأخرى فتنطوي على الأنماط النحوية كالفصل الذي يعني غياب الروابط بين العبارات والجمل، والكلمات التي يعطف بعضها على بعض [وهنا أيضا يمكن استخدام بيت امرئ القيس مثالا على ذلك: مِكرّ مِفرّ مُقبل مُدبر مَعًا] (١).

غير أن زمرة من المحسنات البلاغية تشير إلى ظواهر لفظية ودلالية كالتعريض بالكناية أو التلطيف (euphemism) وهو إبدال كلمة مستقبحة بكلمة مقبولة. ففي اللغة اللاتينية كانت كلمة penis تعني في الأساس "ذيل" والمعنى الأصلي لكلمة vagina "غمد" (السيف مثلا)؛ وفي كلتا الحالتين استعملت كلمة ذات ايحاءات محايدة للدلالة على مفهوم من المفاهيم المحظورة. والاستعارة والكناية ظاهرتان دلاليتان أساسيتان ستبرزان مرارا في علم الدلالة فقه اللغوي التاريخي كما لاحتا بقوة في المذهب البلاغي. وهاهي الطريقة التي قدم بها كوينتيليان (Quintilian) الاستعارة في كتابه Institutio Oratoria وهو كتاب دراسي أثر تأثيرا عميقا في المدارس البلاغية في عصر النهضة والعصور الوسطى:

"الاستعارة ليست طبيعية في كلامنا فحسب لدرجة أن الأمي وغيره يستعملونها دون وعي، وإنما هي تجلب الرضا والسرور وتزين الكلام إلى حد أن بريقها سيكون ظاهرا في أي كلام مهما بلغ من البراعة والتألق. وإذا لم تستخدم إلا استخداما صحيحا فلن تكون أبدا نابية أو وضيعة أو سمجة كريهة. فهي تزيد من غزارة اللغة بأن تتيح لها استعارة مالا تملكه بطبيعتها. وما نعده أعظم إنجازاتها، هو أنها تمنع الاسم من أن ينقصه أي شيء. وعموما فإن الاستعارة مقارنة قصيرة وجيزة. وفي هذا تختلف عن التشبيه في أننا في الأولى نقارن المشبه به بالمشبه الذي نريد توضيحه. أما في الأخرى فيستخدم المشبه به بدلا من المشبه نفسه. فعندما أقول فعل فلان شيئا كالأسد فهذا تشبيه، وعندما أقول فلان أسد فهذه استعارة" (٢).

---

(١) ما بين المعقوفين مثال عربي علي ما أراده المؤلف علي سبيل التوضيح .

(٢) في البلاغة العربية يعد المثال الأخير تشبيهاً أيضاً، ويسمي بالتشبيه البليغ؛ لأنه محذوف الأداة .

أما الكناية (metonymy) فقد وصفها كما يلي:

يتم تطويع المجاز المرسل (Synecdoche) ليعطي اللغة تنوعا بأن يجعلنا نفهم الجمع من خلال المفرد، والكل من خلال الجزء، والنوع من خلال الجنس؛ أي أنه يجعلنا نفهم شيئا لاحقا من شيء آخر سابق، والعكس صحيح. شيء يلي شيئا يسبقه والعكس صحيح. ولكنه متاح للشعراء بحرية أكبر مما يتاح للخطباء. ففي النثر لا نستطيع أن نقول ذنب السفينة ولا يدا الحصان مع أننا يمكن أن نقول رأس السيف وسقف البيت [...] ولا تختلف الكناية عن المجاز المرسل اختلافا كبيرا؛ فالكناية عبارة عن استبدال كلمة بكلمة أخري. وقد كان البلاغيون الإغريق – كما لاحظ شيشرون – يطلقون علي الكناية اسم "المجاز المرسل hypallage". وتدل على ابتكار أبدعه مبتكر أو شيء يمتلكه مالك.

وفي ضوء ضرورة تحديد الأنماط العادية في السلوك الدلالي للكلمات وتصنيف هذه الأنماط، فإن هذه المفاهيم أثبتت أنها نقطة انطلاق ممتازة لعلم الدلالة المعجمي. وفي الوقت نفسه فإن أقوال كوينتيليان التي أوردناها هنا تطرح عددا من النقاط التي لعبت دورا في تطور علم الدلالة المعجمي. أولاها أن الحد الفاصل بين الأدوات البلاغية المختلفة ليس واضحا بصورة مباشرة، إذ يقدم لنا كوينتيليان تعريفا للاستعارة من خلال علاقة التشابه. أما المجاز والكناية فيعرفهما بالتعداد والأمثلة، إضافة إلى أننا نجد من الواضح أن الفرق بين المجاز والكناية مبهم. والتفريق المصطلحي بين آليات التغير الدلالي ستمثل بوضوح بؤرة اهتمام المذهب فقه اللغوي التاريخي.

ثانيا، رسالة كوينتليان كتاب دراسي لمتهني الكتابة و الخطابة (إن صح التعبير) وبالتالي يتناول بالنقاش الأجناس التي يحسن فيها استعمال هذا النوع من المحسنات البلاغية أو ذاك. إلا أنه خلافا للتركيز السائد في المذهب البلاغي لم تنظر الدراسة الدلالية التاريخية فقه اللغوية إلى المحسنات البلاغية على أنها أدوات تنميق في نصوص يتميز أسلوبها بالذوق الرفيع ويستعملها عمدا المؤلفون الذين يسعون جاهدين إلي تحقيق أثر بارز يلفت الانتباه، وإنما على أنها سمات ثابتة من سمات الحياة

الطبيعية للغات البشرية. ويجب أن نقر بأن تصورنا للمحسنات البلاغية على أنها ظواهر يومية كان موجودا بالفعل في الرسائل البلاغية الأقدم كما رأينا في أقوال كوينتليان الواردة أعلاه. وهنا نشير أيضا إلى مثال آخر من أمثلة المذهب البلاغي الشهيرة وهو ما قاله سيزار تشيسنيو دو مارسيس (Cesar Chesneau Du Marsais) في رسالته التي كتبها عام ١٧٣٠ بعنوان: Des tropes ou Des diferens sens dans lesquels on peut prendre un meme mot dans une meme langue [رسالة حول المعاني المختلفة التي يمكن أن يتخذ أحدها كلمة واحدة في اللغة الواحدة]:

يتكرر كثيرا القول بأن المحسنات البلاغية أساليب للكلام بعيدة جدا عن الأساليب الطبيعية والشائعة، وأنها صيغ وأساليب للتعبير التي تبتعد نوعا ما عن أسلوب الكلام العادي والبسيط [...] ولكن بدلا من النظر إليها على أنها أساليب للكلام بعيدة جدا عن الأساليب الطبيعية والشائعة أقول بأنه لا شيء طبيعي أو معتاد أو شائع في لغة الإنسان أكثر من المحسنات البلاغية [...] بل إنني على اقتناع بأن الناس في السوق تستعمل في اليوم الواحد محسنات بلاغية أكثر مما يفعلون في لقاء أكاديمي يدوم أياما كثيرة).

وهذه الرسالة عن "المعاني المختلفة التي يمكن أن يتخذ أحدها كلمة واحدة في اللغة الواحدة" (كما جاء في عنوان مرسيس) يمكن أن نصفها أيضا بأنها رسالة عن علم الدلالة ولكن لم يصبح المنظور الذي تنبأ مرسيس به وأعلنه سائدا إلا في القرن التاسع عشر. وهنا نسأل علام كانت المصطلحات البلاغية تنطبق عندما كانت سائدة؟

٣/١/١- علم صناعة المعاجم:

أين يجد علم الدلالة المعجمي مادة بحثه؟ يواجه هذا العلم الناشئ مهمة (وهي رصد الأنماط المعتادة في السلوك الدلالي) ويأتي مزودا بمجموعة أولية من المفاهيم الوصفية (المحسنات البلاغية) ولكن ما أساسها الوصفي؟ من أين تأتي الأمثلة؟ إن أحد مصادر الأمثلة هو البحث فقه اللغوي في النصوص القديمة، ولاسيما فقه اللغة المهتم بالإنجيل وكتب التراث القديم. ولأن تفسير النصوص الإغريقية واللاتينية والعبرية لا

يكون غالبا واضحا وضوحا فوريا، فإن العلماء الأوائل صادفوا بالطبع أمثلة محيرة من حالات تعدد المعاني والتغير الدلالي. وليس من قبيل المصادفة من هذا المنظور أن كثيرا من الكتاب الأوائل الذين كتبوا عن التغير الدلالي اشتغلوا بفقه اللغة على نحو ما كان سائدا. وهذا ينطبق على كارل رايسنج (Karl Reisig) الذي ربما ينسب له تأليف أقدم كتاب في المذهب فقه اللغوي التاريخي عام ١٨٣٩. وينطبق كذلك على علماء مثل هاس (Haase) وهيرديجن (Heerdegen) وهاي (Hey) وهيشت (Hecht). وعندما ازداد الاهتمام بالنصوص القديمة المكتوبة باللغات الحديثة خلال القرن التاسع عشر برزت على الساحة حالات كهذه في سياق البحث العلمي في العصور الوسطى وعصر النهضة.

أما المصدر الثاني من مصادر مادة البحث لعلم الدلالة المعجمي، فهو علم المعاجم. ففي حين كانت المعاجم الأولى ثنائية أو متعددة اللغة وضعت من أجل الترجمة، ظهر تدريجيا اهتمام بالمعاجم التي تركز على لغة واحدة. وفي عام ١٦١٢ أصدرت أكاديمية ديلا كروسكا (Accademia della Crusca) في فلورنسا معجما دقيقا مفصلا للغة الإيطالية الحديثة بعنوان Vocabolario degli Accademici della Crusca وقد زخر بشواهد كثيرة من أقوال الأدباء. وكان مصدر إلهام لمعاجم مماثلة باللغات الأوروبية الحديثة ونموذجا لها. فقد بدأت الأكاديمية الفرنسية عام ١٦٣٥مشروع معجمها، وأصدرت أول طبعة كاملة من معجم الاكاديمية الفرنسية عام ١٦٩٤ كما ظهر معجم صامويل جونسون عام ١٧٥٥. كان مثل هذه الأعمال المرجعية يزود الباحث في علم الدلالة المعجمي في القرن التاسع عشر بزخم من الأمثلة للمفردات متعددة المعاني والتي يمكن وصف العلاقات بينها من خلال الاستعارة والكناية وما شابه.

لكن العلاقة بين علم المعاجم و علم الدلالة المعجمي نمت و أصبحت أقوى. فقد كانت المعاجم كالتي ذكرناها قبل قليل – على أنها احتوت أمثلة حقيقية لاستعمال اللغة ممثلة بأقوال أدبية – كانت تحمل في طياتها مقصدا تشريعيا يملي على الناس كيف يستخدمون اللغة: لقد كان مؤلفوها يرمون إلى حفظ نقاء اللغة أو – على الأقل – وصف الاستعمال المقبول بصورة إيعازية. وخلال القرن التاسع عشر ظهر على الساحة

نوع من المعاجم جديد ووصفي خالص وهو المعجم التاريخي الذي يهدف الى رصد تطور اللغة من أصولها القديمة حتى ذلك الوقت. ومن الأمثلة البارزة معجم Deutsches Woerterbuch أي المعجم الألماني (الذي بدأه ياكوب وفيلهيلم جريم بين عامي ١٨٥٤ و ١٩٥٤) ومعجم Dictionnaire de la langue francaise (أي معجم اللغة الفرنسية) (الذي جمعه إيميل ليتر ١٨٧٧) ومعجم Oxford English Dictionary (الذي أنشأه جيمس موراي ١٨٨٤ — ١٩٢٨). وأكبر معجم في العالم على الإطلاق هو Woordenboek der Nederlandsche Taal الذي بدأه ماثياس دي فرايس عام ١٨٦٤ وانتهى عام ١٩٩٨. وفيما يلي يصف موراي (١٨٨٤) هدف المعجم في مقدمة المجلد الأول منه:

١) أن يبين كيف ومتى وبأي صورة وبأي معنى أصبحت كل كلمة إنجليزية؛ تطور الشكل والمعنى فيها منذ دخولها اللغة؛ أي استعمالاتها أصبح بمرور الوقت مهملا وأيها بقي مستعملا؛ وما الاستعمالات الجديدة التي نشأت وبأي عملية ومتى. ٢) أن يوضح هذه الحقائق بسلسلة من الشواهد تتراوح بين أول استخدام للكلمة إلى آخره حتى هذه اللحظة و بالتالي يتضح تاريخ الكلمة ومعناها و ٣) أن يتعامل مع أصل اشتقاق كل كلمة بناء على الحقائق التاريخة فقط وبما يتماشى مع طرائق علوم فقه اللغة الحديثة ونتائجها.

يجمع هذا المقطع التوجهات التي أشرنا إليها من قبل: و هي الاهتمام بالتطور الدلالي للكلمات و السعي نحو منهج علمي للتأثيل. و تنبع مشاريع المعاجم التاريخية العظمى التي بدأت في القرن التاسع عشر من الاهتمام ذاته لعلم الدلالة المعجمي التاريخي: أي الاهتمام الشديد بالوصف الصحيح للتطور التاريخي للكلمات و معانيها. و هي شاهد على أن اهتمام القرن التاسع عشر بالتاريخ الدلالي للكلمات أدى إلى كم غير مسبوق حتى الآن من العمل الوصفي. و كمؤشر آخر على العلاقة الفكرية بين علم الدلالة النظري و ممارسات علم المعاجم، فلنا أن نشير إلى اثنين من أهم المنظرين اللذين قاما في الوقت نفسه بجمع معجم ضخم مهم وترتيبه: حيث جمع باول (Paul) معجم Deutsches Woerterbuch ١٨٩٧ و شارك دارميستيتر (Darmesteter) في جمع

معجم Dictionnaire general de la langue francaise (أي المعجم الشامل للغة الفرنسية) (مع هاتزفلد ١٨٩٠).

خلاصة القول أنه عندما نشأ علم الدلالة المعجمي بصفته علما لغويا لم يكن علم التأثيل الظني يقدم إلا نموذجا سيئا؛ أما علم المعاجم وفقه اللغة النصي فيطرحان أساسا تجريبيا لمعطيات علم المفردات الوصفية. أما المذهب البلاغي فيقدم مجموعة أولية من المصطلحات والمفاهيم لتصنيف الظواهر الدلالية المعجمية. ولكن ما الذي يفعله بالضبط هذا العلم الجديد بنقاط البدء هذه ؟

٢/١ - طبيعة المعنى :

يلخص لنا ماكس هكت في بداية كتابه "علم الدلالة عند الإغريق — Griechische Bedeutungslehre (١٨٨٨)" الموقع العلمي لعلم الدلالة فقه اللغوي التاريخي بقوله :

"علم الدلالة علم قيم لغوياً مادام يقوم بتصنيف المعاني حسب التسلسل الزمني لمصلحة علم المعاجم، ويدون قوانين التغير الدلالي لمصلحة علم التاثيل etymology، ولكنه أيضاً يقع ضمن مجال علم النفس التجريبي بقدر ما يستمد هذه القوانين من طبيعة العقل ويكتب تاريخاً للأفكار — فالمعاني أفكار".

يتناسق هذا القول (الذي سيتضح لنا فيما بعد أنه مهم جداً عندما نصف النقلة من علم الدلالة فقه اللغوي التاريخي إلى علم الدلالة البنيوي) تناسقاً دقيقاً مع الخلفية التي رسمناها في الجزء السابق، فعلم الدلالة التاريخي معنى بتصنيف آليات التغير الدلالي. وهذا عمل يرتبط بعلم المعاجم من جهة وباللغويات التاريخية من جهة أخرى.

وفى الوقت نفسه تقدم لنا أقوال هكت جانباً إضافياً من علم الدلالة فقه اللغوي التاريخي: فهو مقاربة تفترض تصوراً نفسياً للمعنى ينظر فيه إلى الظواهر اللغوية قيد الدرس على أنها تكشف لنا خصائص العقل البشرى، وهذان المنظوران يحددان مجال علم الدلالة فقه اللغوي التاريخي، فهو من جهة يقدم لنا زخماً (إن لم نقل ثروة) من الأنظمة لتصنيف التغير الدلالي، ومن جهة أخرى ينهمك في تفكير دقيق يعكس حقائق دلالية.

وفى هذا الجزء والذي يليه سنتفحص عن قرب هذين الجانبين من علم الدلالة فقه اللغوي التاريخي. وفى كل جانب سنسلط الضوء على هذا العلم من خلال آراء عدد من الشخصيات البارزة التي تمثل الاتجاه السائد في هذا المذهب. وفى الوقت نفسه سنصف بإيجاز اختلاف وجهات النظر وتباين الآراء التي لابد من وجودها في هذا الإطار المثمر جداً .

وفيما يخص التوجه النفسي لعلم الدلالة فقه اللغوي التاريخي (الذي يمثل محور هذا الجزء) فإنه يجب علينا القيام بثلاث خطوات: أولاها أننا سنقدم الخصائص الكلية لهذه المقاربة استناداً إلى أبحاث اللغوي الفرنسي ميشيل بريل، ثم ننظر بعد ذلك إلى الإضافة المهمة جداً للمقاربة النفسية التي صاغها اللغوي الألماني هيرمان باول، حيث وضح أهمية السياق والاستعمال لتفسير التغير الدلالي (وليس من قبيل المصادفة أن نركز على برايل وباول، فقد كانت فرنسا وألمانيا دولاً سائدة في هذه الفترة من تطور علم الدلالة المعجمي. وكان برايل وباول رائدين في تلك المقاربات الوطنية)، وأخيراً سنضيف عدداً من الومضات والإضاءات الجديدة بالنظر إلي اختلاف الآراء أو وجهات النظر التي تبرز لنا في التوجه النفسي لعلم الدلالة فقه اللغوي التاريخي.

١/٢/١ - رأى برايل حول المعني والعقل :

في البداية نطرح السؤال التالي: كيف يمكننا أن نحدد خصائص المنهج فقه اللغوي التاريخي ذي التوجه النفسي من حيث المنهج والأسس النظرية ؟ ثمة ثلاث سمات بارزة بهذا الشأن سنوضحها في أقوال برايل، ليس لأنه أول أو أهم من يمثل علم الدلالة التاريخي، وإنما لأن كتبه التي كان لها تأثير كبير تعبر تعبيراً واضحاً عن الأفكار المنهجية الرئيسة، وليس من الضروري أن تجتمع هذه السمات الثلاث معاً فى كل دراسة تنتمي إلى الفترة فقه اللغوية التاريخية، غير أنها تمثل – بصورة كافية – الرؤية المنهجية الأساسية التي تشترك فيها أغلب الدراسات الدلالية فى تلك الفترة (لكننا سنعود إلى الدراسات التى شذت عن ذلك بعد قليل).

أولاً: لن نستغرب بعد ما رأيناه في الجزء السابق أن يوصف علم الدلالة بأنه علم تاريخي، فمثلاً يشير برايل في الصفحة الأولي من دراسة بعنوان "بحث فى علم الدلالة

Essai de semantique" إلي أن الوجهة التاريخية لعلم الدلالة حقيقة واضحة بداهة، ويقول وهو يتحدث عن اللغويات (١٨٩٧ : ١-٣):

"إذا حد المرء نفسه بدراسة التغيرات في الصوائت والصوامت فسيتقلص هذا العلم وينحسر ليصبح فرعاً ثانوياً من فروع فيزياء الصوت (acoustics) وعلم وظائف الأعضاء (physiology)؛ وإذا اكتفي بحصر ما تفقده القواعد اللغوية في عمليات التغير التي تمر بها، فسيخلق وهماً يتحول فيه البناء إلى خراب، وإذا استتر خلف نظريات غامضة عن أصل اللغات، فسيضيف فصلاً آخر إلي تاريخ الأنظمة، ولكن دون فائدة، ويبدو لي أن ثمة شيئا آخر يمكن القيام به [...] واللغويات تحدث الإنسان عن نفسه، فتريه كيف بني أهم أداة للحضارة لاغني عنها، وكيف أحكم بناءها رغم الصعاب المختلفة ورغم ميل اللغة إلي الثبات ومقاومة التغيّر، وهو ميل لابد منه، بل لابد منه رغم حالات التراجع المؤقتة".

وكذلك يمكننا القول بأن من شروط الفهم التام للكلمات بمعانيها المعاصرة أن تكون لدينا معرفة تامة بتاريخها الدلالي: وهنا يؤكد برايل بأن لاشيء سوي التاريخ يستطيع أن يمنح الكلمات الدقة المطلوبة لفهمها فهماً كاملاً (١٨٩٧ : ١٢٤).

ثانياً: يسلط برايل الضوء علي الوجهة النفسية لدراسة المعاني، ولهذا الأمر جانبان: الأول أن المعني اللغوي يعرف علي أنه ظاهرة نفسية، والثاني أن تغير المعني يأتي نتيجة عمليات نفسية، وتبعاً للصفة الأولي، فإن المعني عبارة عن وجود نفسي، أي نوع من الأفكار أو الصور الذهنية. وكما يقول برايل: "اللغة تجعل للفكر وجوداً حقيقياً" (١٨٩٧ : ٢٧٣). ويرتبط الوضع الذهني لمعاني المفردات مباشرة بالوظيفة الكلية للتفكير، أي وظيفة الإدراك بصفتها مرآة تعكس خبرات الإنسان وتجاربه وتعيد بناءها. ويمكن القول بأن للغة صلة بالتصنيف: فهي تخزن الأنماط الإدراكية التي يفهم الإنسان العالم من خلالها. واللغة بتعبير برايل ترجمة للواقع وعملية نقل لا نري الأشياء فيها إلا بإعمال الفكر الذي يعمم ويصنف (١٨٩٧ : ٢٧٥). فاللغة إذن ليست مستقلة بل مرتبطة بمجموعة القدرات الإدراكية الكاملة التي تمكن الناس من فهم العالم بأدوات مفاهيمية أدق وهي كامنة في خبرتهم بالعالم .

وإذا كان المعني يتكون من أنماط أو فئات إدراكية — أي أنه نوع من الوجود النفسي — فإن تغير المعني لابد أن ينتج عن عمليات نفسية؛ أي أن الآلية العامة للتغير الدلالي التي يمكن استنباطها من الدراسة التصنيفية لتاريخ الكلمات تشكل أنماطاً فكرية للعقل البشري. ويسمي برايل هذه الآليات "القوانين المفاهيمية للغة"، ولكنه يبادر بقوله إن كلمة "قانون" هنا تختلف في معناها عما تعنيه في العلوم الطبيعية: فقانون التغير الدلالي ليس قانوناً صارماً خالياً من الاستثناءات، بل يمثل ميل آلة الإدراك البشري إلي أن تعمل بطريقة معينة. ويقول في معرض حديثه عن معارضته القول بوجوب قصر اللغويات علي دراسة الجوانب الشكلية للغة (١٨٩٧: ٣٣٨– ٩):

"لا شك في أن اللغويات إذا تخلت عن أحكامها الاعتباطية المتناقضة، ستدرس القوي الأساسية المؤثرة في اللغات – أي الإنسان وذكاءه — دراسة أفضل. وعملية التحول الغامضة التي جعلت الفرنسية تنبثق عن اللاتينية (تماماً كما انبثقت عن الزندية والإنجليزية عن الأنجلوساكسونية) والتي تعرض لنا أينما وقعت مجموعة بارزة من علاقات التشابه والتوازي فيما يتعلق بأساسياتها، هذا التحول ليس نتيجة اندثار الأصوات أو اختفاء نهايات الكلمات وحسب. بل إننا نشعر بأن خلف هذه الظواهر التي ينطق كل شيء فيها بالاندثار نشعر بالجهود النشطة الحثيثة للعقل البشري وهو يحرر نفسه من القالب الذي وضع فيه قسراً مقيداً نفسه ومحاولاً تعديله وتحويل ما نراه غالباً — وللوهلة الأولي خسارة ودماراً — إلى أمر يستفيد منه. فالعقل يحرك المادة".

وتتجلي قوة العقل الدافعة كذلك في الحقيقة التى تقول بأن العامل الرئيس الذي يدفع بآلية التغير الدلالي النفسية إلي العمل يتكون من الحاجات الاتصالية لمستعمل اللغة. فاللغات تتغير لأن الناس تحاول التعبير عن أفكارها بصورة دقيقة ومرضية قدر الإمكان كما يقول برايل (١٨٩٧: ٨) الذى يضيف قائلاً:

"لابد لنا من أن نفهم الهدف من وجود اللغة. انظر إلي الطفل الذي يظل أشهراً يدرب لسانه لينطق الصوائت ويلفظ الصوامت" وكم من مرة فشل قبل أن يتمكن من أن ينطق بكلمة واضحة! إن التغير في قواعد اللغة شبيه بذلك، إلا أن الفرق في هذه

الحالة هو أن الأمر يتعلق بشعب بأكمله. فكم من تركيب ركيك أو خاطئ أو مبهم استعملناه قبل أن نجد التعبير الذي نظن أنه على الأقل يعبر عن أفكارنا بصورة كافية، وليس التعبير المثالي عنها؛ إذ ليس لمثل هذا التعبير وجود.

وللتوجه النفسي لعلم الدلالة تبعات منهجية (وهذا يمثل السمة الثالثة الرئيسة للمنهج فقه اللغوي التاريخي). وفي المقطع التالي لا يكرر برايل قوله بأن علم الدلالة علم تاريخي وحسب، بل يدلي برأيه في كيفية تطبيق ذلك المشروع العلمي (١٨٩٧ : ٢٧٨) :

"إذا أقر المرء بأن ثمة فرقا بين العلوم التاريخية والعلوم الطبيعية؛ أي نظرنا إلي الإنسان علي أنه موضوع فصل مستقل من دراستنا للكون، فإن اللغة التي هي من صنع الإنسان لا يمكن أن تكون بمعزل عنه، ولابد من أن تكون اللغويات فرعاً من فروع العلوم التاريخية".

إن علم الدلالة — كما يصفه برايل — علم تأويلي hermeneutic discipline بالمعني الذي استخدمه الفيلسوف الألماني فيلهيلم ديلثي Wilhelm dilthey رغم أن برايل لا يذكر ذلك صراحة. ومن الواضح أن العلوم الطبيعية أيضاً تدرس العمليات التاريخية (كما في الجيولوجيا أو دراسة نشوء الكائنات)، ولذلك فإن الفرق بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية المذكور في المقطع السابق يجب أن نتبعه على مستوي المنهج، وليس علي مستوي مادة البحث في كلا المذهبين. وربما أشار الفرق الذي وضعه برايل إلى نظريات ديلثي الذي اشتهرت آراؤه عن الفرق بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية قرب نهاية القرن التاسع عشر. إن استقلال العلوم الإنسانية في المنهج عن العلوم الطبيعية يكمن في حقيقة أن هذه العلوم تحاول من خلال عملية تفسير توكيدية أن تفهم صور التعبير الثقافية التي وضع البشر فيها خبرتهم بالعالم على مر التاريخ.

أما العلوم الطبيعية، فتحاول تفسير خصائص العالم المادي بقوانين جامدة. وعلاوة علي البعد التاريخي والثقافي فإن العلوم الإنسانية بالمعني الذي استخدمه ديلثي تعد تأويلية بامتياز؛ إذ تحاول أن تعيد بناء التجربة الأصلية التي تكمن في أساس جوهر صور معينة من التعبير البشري الذي تناقلته الأجيال منذ القدم حتي الوقت الحاضر. إنها تبحث عن الغرض التعبيري الذي يكمن خلف الصور التاريخية للتعبير.

وهنا تتضح لنا الصلة بين تصور ديلثي للعلوم الإنسانية وعلم الدلالة اللغوي الذي وصفناه آنفاً، فعلم الدلالة فقه اللغوي التاريخي ينسجم انسجاماً كبيراً مع رأي ديلثي في العلوم الإنسانية، وذلك من خلال مقاربته التاريخية وتركيزه على الخبرة والتجربة والأهمية التي يوليها للغرض التعبيري لمستعمل اللغة بوصفه مصدراً للتغير اللغوي. وينعكس هذا التصور علي مستوي المنهج؛ فالعملية الأساسية التي تقوم عليها منهجية علم الدلالة اللغوي هي تفسير النصوص؛ لأنه علم تاريخي مادته الأولية نصوص تنتمي إلي لغات ميتة أو إلي مرحلة سابقة من مراحل تطور إحدي اللغات الحية. ولن نتمكن من أن نتعرف على التغيرات التي تحدث من عصر إلى آخر (والآليات التي تتحكم في هذه التغيرات) وأن نصنفها ونشرحها إلا بعد عملية التفسير هذه. إذا فالخطوة المنهجية الأساسية للباحث في علم الدلالة التاريخي هي الخطوة ذاتها التي يقوم بها المشتغل بصناعة المعاجم التاريخية والباحث في فقه اللغة. وهي أن يفسر النصوص التاريخية في ضوء سياقها الأصلي بعد أن يستنبط الغرض الاتصالي الأصلي للمؤلف.

خلاصة القول أننا إذا انطلقنا من آراء برايل، فإن ما يميز علم الدلالة فقه اللغوي التاريخي هو تركيزه علي ديناميكية اللغات وحركتها الدائمة والتصور الإدراكي النفسي الذي يتبناه في فهم المعني وكذلك المنهج التفسيري الذي يطبقه. ولكن كيف تتعامل مقاربة كمقاربة برايل مع الجانب الجمعي للغة ؟ هنا نجد في آراء هيرمان باول Hermann Paul حول علم الدلالة إجابة عن سؤالنا هذا.

٢/٢/١ - آراء باول حول السياق والاستعمال :

إذا ركزت أيها القارئ الكريم علي السلوك والأفعال الفردية الإبداعية التي تبدع في تغيير اللغة، فما هي بالضبط علاقتها باللغة، والحال أن اللغة تتجاوز كونها مجرد ظاهرة فردية بحتة ؟ ما علاقة السلوك الفردي المجدد باللغة من حيث هي مؤسسة مشتركة ؟ يجيب عن هذا السؤال بالضبط الوصف الدقيق الذي طرحه هيرمان باول للتصور النفسي لعلم الدلالة، وإلي هذا الوصف نتوجه الآن (علماً بأن باول Paul صاغ أراءه هذه في مقدمته المهمة في اللغويات التاريخية التي نشرها عام ١٨٨٠ بعنوان "مبادئ التاريخ اللغوي Prinzipen Der Sprachgeschichte". وأقواله الواردة أدناه مقتبسة من طبعته الخامسة الصادرة عام ١٩٢٠.

إن أول ركيزة في مقاربة باول هي التفريق بين المعني "الدارج" (usual meaning) والمعني "العارض" (occasional meaning) لأي تعبير لغوي. فالمعني الدارج هو المعني الذي استقر في أذهان الناس بصفته معني يشترك فيه كل أفراد المجتمع اللغوي. أما المعني العارض فهو أي تحول أو تعديل يطرأ علي المعني الدارج في كلام الناس (١٩٢٠ : ٧٥). وفي هذا الشأن يقول باول:

"ونفهم من قولنا" المعني الدارج "إشارته إلي المحتوي التمثيلي الكلي الذي يرتبط في ذهن كل عضو في المجتمع اللغوي بكلمة من الكلمات. ونفهم من قولنا" المعني العارض "إشارته إلي المحتوي التمثيلي الذي يرتبط في ذهن متحدث واحد بكلمة من الكلمات عندما يستعملها والذي يتوقع من سامعه أن يربطه بالكلمة ذاتها".

وإذا كان "المعني الدارج" يماثل الوصف الدلالي المدون في أي معجم (والذي يكون عادة عاماً إلي حد كبير ومعروفاً لكل متحدثي اللغة) فإن المعني العارض هو درجة التجسيد التي ينالها ذلك المفهوم العام في سياق استعمال منطوق بعينه. والركيزة الثانية في تصور باول لعلم الدلالة هي فكرته التي تقول بأن السياق مهم جداً لفهم عملية التحول من المعني الدارج إلي المعني العارض. وسيسهل علينا فهم هذه النقطة إذا نظرنا إلي عدد من الأنواع المختلفة للمعني العارض وكيفية انبثاقها عن المعني الدارج.

دعونا بداية نشير إلي أنه يمكن أن يكون للكلمة الواحدة معان دارجة عدة؛ أي أن الكلمة إن كانت متعددة المعاني فإن المعني الدارج يتكون من مجموعة من المعاني التي يرتبط بعضها ببعض. أو بعبارة أخري مجموعة من المعاني السياقية (senses) الراسخة أما المعني العارض فدائماً ما يكون قراءة فردية. نستنتج من ذلك إذن أن تحقيق المعني في حالات كثيرة يعني اختيار القراءة الصحيحة من بين عدة معان سياقية ثابتة للكلمة. وهنا يسلط باول الضوء علي أهمية السياق في هذه العملية. فمثلاً سيختلف علي الأرجح تفسيرنا لمعني كلمة Blatt "وتعني ورقة باللغة الألمانية" في سياق الحديث عن مكتبة تبيع الكتب، عن تفسيرنا لمعناها إذا استخدمت في سياق القيام بنزهة في الغابة: ففي السياق الأول تعني "ورقة الكتابة أو ورقة من كتاب" وفي الثاني تعني "ورقة من أوراق الشجر".

وتسييق (contextualization) المعني الدارج فى حالات أخري لا يعني اختيار قراءة واحدة من بين قراءات متعددة، وإنما يعني التجسيد الدقيق لمعني سياقي عام. فعلي سبيل المثال تستعمل كلمة "حبوب – corn" مصطلحاً عاماً يشير إلي كل أنواع الحبوب، ولكنها في إنجلترا تطلق علي "القمح" فقط، وفي أسكتلندا علي "الشوفان"، وفي أمريكا علي "الذرة الصفراء"؛ أي يتم تخصيص معناها حسب نوع الحبوب الذي تشيع زراعته في هذه البلدان. ونكرر القول هنا بأن سياق الاستعمال هو الذي يحدد المعني الخاص.

وأخيراً نذكر أمثلة لا يضم فيها المعني المسُيّق (contextualized meaning) (أي الذي يفهم في سياق خاص) كل صفات المعني الدارج. ففي التعبير المجازي "نيران الشوق" لا يمكن أن نفهم كلمة "نيران" بمعناها الأصلي لاجتماعها مع كلمة "شوق".

رأينا إذن كيف أن التفاعل بين العوامل السياقية والمعني الدارج يمكن أن يؤدي إلى ظهور المعني العارض. ولكن ماذا عن حدوث العكس ؟ كيف يمكن للمعني العارض أن يتسبب في ظهور المعني الدارج ؟ هنا نأتي إلي الركيزة الثالثة التي تستند عليها آراء باول، وتكمن في علاقة جدلية بين بنية اللغة واستعمالها؛ إذ قد يصبح المعني العارض الذي يتكرر استعماله معني دارجاً بنفسه؛ أي يصبح مستقلاً. وهكذا فمن جهة تشكل المعاني الدارجة أساساً نستمد منه المعاني العارضة، ولكن من جهة أخري قد تصبح المعاني المسيقة مألوفة ولا يختلف معناها باختلاف السياق. وأوضح معيار يدل علي التحول من معني عارض إلي معني دارج هو إمكانية تفسير المعني الجديد خارج السياق أو دون الحاجة إلي معرفة سياق استعمالها. فإذا كانت كلمة "حبوب" تثير معني "القمح" دون أي إشارة خاصة يستدل بها في البيئة اللغوية أو غير اللغوية. فيمكننا عندئذ أن نتأكد أن معني "قمح" قد أصبح خاضعاً للعرف والاصطلاح.

وبهذه الطريقة يبني باول نظرية تداولية لتفسير التغير الدلالي ترتكز علي مفهوم الاستعمال، ومفادها أن أساس التغير الدلالي هو تحويل المعني الدارج إلي معني عارض. وآليات حدوث التغير الدلالي التي يتحمس الدلاليون كثيراً لتصنيفها هي الآليات نفسها التي تتيح للمتحدثين تعديل تلك المعاني الدارجة وتغييرها. ففي مثال

كلمة "حبوب" مثلاً نستطيع أن نري كيف أن كلا من تخصيص المعني والاستعارة يعمل علي مستوي المنطوق الفعلي (وعادة يذكر نوعان من التغير الدلالي في تصنيفات التغير الدلالي).

٣/٢/١ - آراء مغايرة:

إن التصور النفسي للمعني الذي عبر عنه برايل وباول بوضوح هو النظرة السائدة في علم الدلالة فقه اللغوي التاريخي، فهي عموماً النظرة التي تبناها كتّاب كُثر مثل فيجنر (Wegener,١٨٨٥) وهيشت (Hecht,١٨٨٨) وهاي (Hey,١٨٩٢) وستوكلاين (Stocklein,١٨٩٨) وتوماس (Thomas,١٨٩٤,١٨٩٦) وفاج (Waag,١٩٠٨) وإيردمان (Erdman,١٩١٠) في ألمانيا وباريس (Paris,١٨٨٧) ورووديه (Roudet, ١٩٢١) وإيسنولت (Esnault,١٩٢٥) في فرنسا وفيلاندر (Wellander,١٩١٧, ١٩٢١) في السويد ونيروب (Nyrop,١٩٠١- ٣٤,١٩١٣) في الدنمارك وفان هلتين (Van Helten,١٩١٢-١٣) بهولندا وويتني (Whitney,١٨٧٥) وأورتيل (Oertel, ١٩٠٢) في الولايات المتحدة الأمريكية. لكنها لم تكن وجهة النظر الوحيدة ولم تبرز بسرعة. أضف إلي ذلك أن التوجه النفسي الكلي يفسح المجال لظهور عدد من الأصوات المغايرة. ولذلك فلنحاول أن نلخص أهم الاختلافات في الآراء. سنستعرض أربعة اتجاهات مختلفة للبحث. أولها المذاهب المنطقية التصنيفية (Logical-classificatory approaches) التي لا تنطلق من التصور النفسي للمعني؛ والثاني التصورات الأخري المختلفة للجانب النفسي للمعني (والتي قدمناها بناء علي آراء برايل)؛ والثالث نظريات تُعدّ امتداداً للنظرة السياقية (والتي قدمناها بناء علي آراء باول) والرابع ظهور مجال البحث في علم التعبير عن المعاني (onomasiological research). من الناحية الزمنية ظهرت هذه الأصوات التي ذكرناها هنا في فترات مختلفة قبل صياغة آراء برايل وباول المعروفة وبعدها. ونقاشنا هنا لاختلافات الرأي ووجهات النظر لا يأتي علي كل المسائل التي نوقشت في المنهج فقه اللغوي التاريخي أبداً، وإنما يستكشف عدداً من الأسئلة المهمة.

١) أبدأ أولاً بالقول إن التوجه النفسي لم يظهر بسرعة؛ ففي النصف الأول من القرن التاسع عشر والستينيات منه كان التركيز منصباً علي التعرف على الأنماط

المتكررة للتطور الدلالي وتصنيف مسارات التغير وليس علي الخلفية المعرفية الإدراكية لهذه الظواهر. وهذه المقارنة التي غالباً ما كانت تسمي المنطقية التصنيفية أو المنطقية البلاغية في مقابل المقاربة النفسية التفسيرية يمكن أن نجدها في دراسات رايسج (Reisig,١٨٣٩) وهاس (Haas,١٨٧٤-٨٠) وهيردجن (Heerdegen,١٨٧٥-٨١).

إن الفرق الأساسي بين المقاربتين يكمن في الدور الذي تلعبه السببية في علم الدلالة. فأحد أهم الأسباب التي دفعت بعلماء مثل برايل إلى تبني منظور نفسي هو أنه قد يقدم لنا تفسيراً للتغير الدلالي؛ فقد تتغير معاني الكلمات كما رأينا فيما اقتبسناه من كتاب برايل؛ لأن مستعملي اللغة يحاولون التعبير عن شيء جديد؛ أي أن أفراداً من متحدثي اللغة يغيرون اللغة ليكيفوها مع احتياجاتهم. وفي المقابل فإن المقاربة المنطقية التصنيفية إما أن تولي الأسئلة التفسيرية اهتماماً يسيراً جداً وبالتالي تقصر محاولاتها علي تحديد التغيير وتصنيفه أو أن تنسب بسذاجة التغيير إلي "حياة اللغة" بدلاً من أن تعزوه إلي نشاط مستعمل اللغة.

٢) قد توحي لنا عبارة مثل "حياة اللغة" بأن اللغات ذوات لها وجود مستقل بها. وقد شاع استخدام هذه الاستعارة في لغويات القرن التاسع عشر، فنجد أن فقه اللغة المقارن الذي يحدد "الأرومة اللغوية" لعدد من اللغات مبيناً كيف أن لغة ما تطورت تاريخياً إلي لغات فرعية عديدة، نجده يعتمد علي الصورة نفسها. وفي علم الدلالة يمثل كتاب أرسين دارمستتر (Arsene Darmesteter) الذي صدر عام ١٨٨٧ وصدر باللغة الإنجليزية عام ١٨٨٦ مثالاً بارزاً علي استخدام هذه الاستعارة الحيوية. ويستهل كتابه هذا بقوله: "**إن اللغات كائنات حية لها حياة حقيقية ولا تقل في ذلك عن حياة الكائنات في مملكة النبات أو الحيوان رغم أنها حياة فكرية عقلية بحتة. وربما أمكن لنا أن نقارن حياتها بحياة تلك الكائنات" (١٨٨٧:٣).** ثم يتوسع في استخدام هذه الاستعارة الحيوية حتي نهاية الكتاب حتي أن فيه فصلاً أسماه "كيف تولد الكلمات" وآخر "كيف تتعايش الكلمات" أما الفصل الأخير فأسماه "كيف تموت الكلمات".

ويبدو لنا جلياً أن هذه الاستعارة الحيوية لا تقدم لنا تفسيراً ذا بال، فكما يؤكد برايل نحتاج إلي عقل لتتحرك اللغة. ولكن السؤال هنا هو: عقل من ؟ عندما نتأمل

هذا السؤال سنجد اختلافاً في وجهات النظر ضمن جماعة الباحثين ذوي الوجهة النفسية. فيركز برايل وباول علي الفرد معللين ذلك بأننا نحتاج عقل مستعمل اللغة لنحرك اللغة. أما فيلهيلم فونت (Wilhelm Wundt) فيتخذ في كتابه (علم نفس الشعوب Volkerpsychologie) الصادر عام ١٩٠٠ اتجاهاً جمعياً، فيقول مثلاً بأنه إذا عرفنا بأن اللغة ذات جمعية وليست ذاتا فردية خالصة، فإن العقل الذي تعبر عنه اللغة في المقام الأول هو عقل الشعب؛ أي أنها "روح الأمة أو الشعب" التي تحدد هويتهم الخاصة.

وأما موريتز لازاروس (Moritz Lazarus,١٨٥٦-٧) وهيرمان ستاينثال (Hermann Steinthal,١٨٦٠) اللذان اشتركا في تأسيس مجلة (المجلة الدولية لعلم النفس الشعبي واللغويات Zeitschrift für Volkerpsychologie Sprachwissenschaft فقد قاما بتحديد أساسيات سيكولوجية الشعب. ويحتجان بأن الأفراد يتأثرون تأثراً كبيراً بالجماعة التي ينتمون إليها في طريقة تفكيرهم وشعورهم وتصرفهم ولاسيما الأمة أو الشعب الذي هم جزء منه. ويمكن دراسة روح هذه الأمة بعينها فيما تعبر به عن نفسها كاللغة.

ولهذه الفكرة صلة كبيرة بالفكر الألماني، فقد كانت مألوفة في المذهب الرومانسي (Romanticism) وبالأخص في فلسفة يوهان جوتفريد فون هيردر (Johann Gottfried von Herder) كما لعبت دوراً بارزاً في تكوين آراء فيلهيلم همبولدت (Wilhelm von Humboldt,١٨٣٦). والحقيقة أنه كان لفون همبولت دور مهم في تطور علم الدلالة؛ لأنه قدم لنا الفرق في المفهوم بين الشكل اللغوي الخارجي والشكل اللغوي الداخلي (aussere sparchform, innere sprachform). فالشكل اللغوي الخارجي هو المادة أو الجانب الصوتي للغة. أما الشكل الداخلي، فهو البنية الدلالية الخاصة سواء كانت البنية المعجمية أو البنية النحوية والصرفية التي تكمن تحت الشكل الخارجي والتي تميز بين لغة وأخرى. والسبب الدقيق في أن اللغات يمكن أن تجسد رؤية المجتمع اللغوي الخاصة هو أنها تحمل معها أنماطاً داخلية مختلفة للمعني. بعد ذلك اعتمد كل من لازاروس وستانداير علي همبولت وطبقا أفكاره علي علم النفس والتي أمعن في استكشافها فيما بعد فونت (Wundt).

قام فونت (الذي يعرف بأنه أب علم النفس التجريبي لأنه مؤسس أول معمل نفسي وله تأثير عظيم في تطور علم النفس الحديث) بتطوير نظرية "سيكولوجية الشعب" بالتركيز علي ثلاثة أنواع من التعبير الرمزي: اللغة والأساطير والتقاليد. فلا عجب إذن في أن أحد المجلدات العشرة من كتابه العظيم (علم نفس الشعوب) Voelkerpsychologie ١٩٠٠مخصص بالكامل لموضوع اللغة والتعبير الدلالي. بيد أن برنامجه عن سيكولوجية الشعب لم يلق نجاحاً كبيراً في أوساط اللغويين ماعدا بعض الأثر الذي تركه فيما يتعلق بتصنيف أنواع التغير الدلالي. والحقيقة أن المشكلة الأساسية المتعلقة بتفسير حدوث التغير الدلالي تبقي دون حل كما في التصور الحيوي للغة. وافتراض وجود عقل جمعي لا يفسر كيف لمجموعة مشتركة من المعتقدات والقيم أن تظهر أو تتغير إلا إذا قبلنا الافتراض غير المرجح بأن لها وجوداً وحياة مستقلة (كما سنري لاحقاً) فإن أثر همبولت لا يتوقف عند فونت، بل نجد عدداً من الآراء في العصر البنيوي كآراء فايسجربر (Weisgerber) التي تأثرت بفكرة همبولت عن الشكل الداخلي للغة.

وينطوي شكل آخر مختلف من التنوع داخل المقاربة النفسية علي الظواهر الذهنية التي يركز عليها علم الدلالة المعجمي. فعندما يري المرء المعني علي أنه ظاهرة ذهنية إدراكية فإن الاهتمام يتحول تلقائياً نحو المفاهيم الوصفية: فعبارة مثل " شجرة عيد الميلاد " تعني شيئاً كـ " شجرة دائمة الخضرة " (أو شجرة صناعية مثلها) توضع داخل البيت أو قربه خلال أيام العيد وتزين بالأنوار والزخارف الملونة وقلائد الأزهار وما شابه ذلك. لكن المحتوي المعرفي للكلمة يتعدي هذا المفهوم الوصفي المباشر. ولقد لفت عدد من الباحثين في علم الدلالة فقه اللغوي التاريخي الانتباه إلي ضرورة أن يكون لدينا مفهوم أوسع للقيمة الفكرية. فيقدم لنا (كارل أوتو ايردمان Karl Otto Erdmann, ١٩١٠) علي وجه الخصوص مجموعة من المصطلحات تجمع جانبين من جوانب نظرة أوسع للمعني الدلالي، وهما: المعني الثانوي (Nebensinn) والقيمة العاطفية (Gefuehlswert). يشير المعني الثانوي إلي المفاهيم المرتبطة بالعبارة؛ أي أن ما تثيره مثلاً " شجرة عيد الميلاد " في أذهاننا ليس فقط فكرة شجرة مزينة كما رأينا سالفاً، وإنما التفكير في جو ألفناه في العيد وبالهدايا وباجتماع أفراد الأسرة وبوليمة

خاصة.إلخ. كل هذه المعاني تقع ضمن ما نعرفه بشأن شجرة عيد الميلاد. وحتي إن لم تنطبق الصفات التي ذكرناها على جميع أشجار عيد الميلاد، فإنها بالتأكيد قريبة من شجرة عيد الميلاد التي يعرفها كل الناس مع السماح بوجود فوارق ثقافية. ويتعين بالضرورة على علم الدلالة ذي الصبغة النفسية أن يتضمن وصفا لهذه الشبكة الواسعة من المعاني المرتبطة بالكلمات إذا أراد أن ينصف الحالة الذهنية لعبارة مثل "شجرة عيد الميلاد". أما القيمة العاطفية، فتشير إلى الإيحاءات والمعاني السلبية التي ترتبط ببعض الكلمات دون غيرها مثل عذر وذريعة/ فائدة وربا/ أمي وجاهل/ متزينة ومتبرجة/ مكشوفة الرأس وسافرة/ عملية استشهادية وعملية انتحارية. فالكلمة الثانية في كل من هذه الأزواج الستة تحمل إيحاءات سلبية ليست في الأولى رغم أن معناها الدلالي واحد.

وإذا استخدمنا مصطلحات معاصرة، فيمكن أن نشير إلى كل من المعنى الثانوي والقيمة العاطفية مجتمعين بمفهوم "المعنى الإيحائي" (connotation) أي ما توحي به الكلمة من مفاهيم ومعان وأفكار وقيم ومشاعر بخلاف المعنى الدلالي الأصلي (denotation) بصفته المعنى الإشاري (referential) الأساسي للكلمة. وكلا المفهومين مهم لمتابعة سرد قصتنا وكشف مكنوناتها. أما إذا تحدثنا عن إدخال المعنى الثانوي ضمن دراسة علم الدلالة، فإنه – ورغم أن الأمر قد يبدو جليا لنا إن صغناه على هذا النحو – ليثير واحدة من أكبر الإشكاليات في تاريخ علم الدلالة المعجمي؛ ألا وهي إلى أي مدى يمكن أو يجب أن نحصر الوصف الدلالي؟ وبعبارة أدق هل يجب أن يشمل كافة أطياف المعنى وإيحاءاته التي ندركها؟ هذا سؤال سيتعين علينا العودة إليه مرارا خلال قصتنا. وكما سنرى فإن الإجابة عنه لا تخلو من بعض الاختلافات الأساسية في الرأي داخل علم الدلالة المعجمي. أما القيمة العاطفية، فقد كان دورها مباشرا في تطور علم الدلالة فقه اللغوي التاريخي بصورة أكبر. وأبدأ هنا بما جاء في دراسات كل من جابرج (Jaberg,١٩٠١،١٩٠٣،١٩٠٥) وشرويدر (Schreuder, ١٩٢٩) وفان دونجن (Van Dongen,١٩٣٣) من أن الطرق المختلفة التي قد تتغير بها القيمة العاطفية للكلمات تحتاج إلى أن تكون جزءا من تصنيف التغير الدلالي، كما أن تفاصيل هذا التطور في المعنى يجب أن توصف. ولتغير المعنى العاطفي نوعان رئيسان درج الباحثون على التفريق بينهما وهما: التغير بانحطاط الدلالة (التغير الانحطاطي pejorative change) وهو تغير ينحط فيه معنى الكلمة العاطفي إلى معنى سلبي،

والتغير برقي الدلالة (التغير الإعلائي ameliorative change) وهو تغير يسمو فيه معنى الكلمة العاطفي ويرقى إلى معنى إيجابي. وسنعود إلى هذا التصنيف في الجزء ١,٣,١.

ويتجاوز مثل هذا التصنيف لتحولات المعنى العاطفي علماء مثل سيربر Sperber, (١٩٢٣،١٩١٤) أو فان جينيكن (١٣-١٩١٢،١٢-٩١١ Van Ginneken,) وينظرون إلى أبعد من ذلك بالقول إن وجود سمة التعبير العاطفي سبب رئيس في التغير الدلالي. ومن الأمثلة الشهيرة في تحليل سيربر لصور الاستعارة التي كان جنود الصفوف الأمامية في الحرب العالمية الأولى يستخدمونها أنهم كانوا يسمون "الرشاش" بأسماء مثل آلة الخياطة أو مطحنة القهوة. ويعلق سيربر على ذلك بقوله إن أوجه الشبه الموضوعية التي ربما فسرت استخدام هذه الصورة الاستعارية كالصوت الذي تصدره الآلات لا يفسر إلا جزءا منها. فالأهم من ذلك هو الأثر الذي تتركه الاستعارة؛ أي أن الإيحاءات والمعاني المحببة التي توحي بها الأدوات المنزلية التي هي مادة الاستعارة تزيل بعضا من الخطر الذي يحمله السلاح الذي هو هدف الصورة. إن الدافع إلي استخدام الاستعارة ليس حاجة تعبيرية فكرية مقصودة (الحديث عن شيء لم يسمه أحد حتى الآن) وإنما حاجة عاطفية غير مقصودة إلى حد كبير: أي الرغبة في كسر حدة القيمة السلبية لسلاح قاتل بالتعبير عنه بشيء مألوف. إن الهدف من إصرار سيربر على دور مثل هذه العوامل العاطفية في التغير اللغوي هو تصحيح الصورة الإرادية أو الاختيارية التي رسمها للحاجة التعبيرية: فالحاجات التعبيرية لا تنشأ من الإرادة العقلانية وحسب، بل يمكن أن تبعثها مثيرات نفسية لاشعورية.

٣) دعونا الآن نلتفت إلي المجموعة الثالثة من الآراء المغايرة التي نحتاج إلى أن ننظر فيها. في المجموعة السابقة وجدنا تصورات مغايرة للجوانب النفسية المطروحة في النموذج الأصلي المتعارف عليه: فإما أن نجد تفسيرا يميل إلى أن يكون جمعيا كما في حركة "علم نفس الشعب" أو أن نجد تفسيرا يميل إلى كونه عاطفيا كما في دراسات إيردمان وجابرج وسبيربر. أما في المجموعة الثالثة من المقاربات فسنطلع على تصور آخر مختلف للركيزة الثانية من ركائز النموذج الأصلي الذي وضحناه بدراسات باول. إن العلاقة الجدلية القائمة بين البنية اللغوية والاستعمال تعني تبني نظرة سياقية

للمعنى: فالمعاني تتغير في سياق استعمال اللغة الحقيقي؛ وهكذا يظهر المعنى العارض بجوار المعنى الدارج. لكن مفهوم السياق واسع جدا: فكيف يمكن أن نملأه؟ لدينا مقاربتان خاصتان سنركز عليهما الآن؛ الأولى اجتماعية دلالية تقدم لنا تفسيرا اجتماعيا للجوانب السياقية من علم الدلالة فقه اللغوي التاريخي؛ والثانية مقاربة اتصالية تقدم تفسيرا تداوليا (يركز على مقاصد الكلام). ظهرت المقاربة الاجتماعية الدلالية لأول مرة في دراسات أنطوان مييه (Antoine Meillet,١٩٠٦) ثم مثلها بعد ذلك فندريس (Vendryes,١٩٢١) و إلى حد ما نيروب (١٩١٣). وفكرتهم الأساسية تتمثل في أن الفئة الاجتماعية التي تستخدم فيها الكلمة قد تفرق بين القراءات متعددة المعاني للكلمة والتي ربما أدت إلى تغير المعنى. وكان باول بنفسه – كما رأينا – قد لفت الانتباه إلى عوامل السياق اللغوية وغير اللغوية؛ أي الكلمات التي تتصاحب مع كلمات مقصودة (وقد استخدمنا "نيران الشوق" مثالا علي هذا) أو الموقف الذي تستخدم فيه (التي مثلنا لها بكلمة "ورقة" وقراءاتها المختلفة). ثم أضاف مييه بعد ذلك الفئة الاجتماعية بوصفها عاملا سياقيا مهما (وربما كان في رأي مييه العامل الأهم).

وأحد الأسباب أن السياق الاجتماعي يفرق بين معان مختلفة. وبالإشارة إلى أحد الأمثلة التي استخدمها بريال، يذكر مييه أن مشكلة تعدد معاني كلمة operation تكمن في أنها تحل في سياقات اجتماعية مختلفة: فهي لعالم الرياضيات تشير إلى عمليات حسابية و للطبيب إلى عملية جراحية و للعامل إلى تشغيل آلة من الآلات، الخ. وعلاوة على ذلك فإن هذه السياقات قد لا تزيل غموض المعنى وحسب، بل قد تكون السبب في التفريق الدلالي بين المعاني عندما يظهر معنى جديد داخل فئة اجتماعية معينة. وبهذه الطريقة شرح لنا مييه معنى كلمة arriver (التي تعني "يصل" بالفرنسية) والتي كانت في الأصل تعني'to reach the shore'(يصل إلى الساحل). وهذا الفعل مشتق من الكلمة اللاتينية adripare حيث الجزء ripa منها يعني "الساحل". والنزول للساحل في مجتمع البحارة يعني بلوغ المرء وجهته. وعندما يستخدمها بقية أفراد المجتمع الأكبر من مستعملي اللغة فإن القراءة الأخيرة هي التي تستخدم. والحقيقة أن مثل هذه العوامل الاجتماعية لا تنافس آليات التغيير التقليدية

(كالاستعارة والكناية) وإنما تعمل معا، رغم أن مؤيدي المقاربة الاجتماعية الدلالية قد يوحون بعكس ذلك. ففي المثال السابق يسهل علينا أن ندرك أن التحول من "بلوغ الساحل" إلى "بلوغ الغاية أو الوجهة" هو نوع من الكناية في حين أن العامل الاجتماعي المسبب للتغير واضح.

أما فيما يتعلق بالتخصيص التداولي (وليس الاجتماعي) للتوجه السياقي فإن الفكرة الأساسية هي أن السياق يحتاج إلي أن ينظر إليه من منظور اتصالي؛ أي أن المعاني في حراك دائم ولكن ليس بصفتها وظيفة للسياق (سواء سياق المقام أو السياق الاجتماعي) وإنما بصفتها وظيفة للتفاعل الاتصالي بين مستعملي اللغة. وربما أتى ذلك في المقام الأول. ويتسم هذا التوجه بما قاله فيجينر باختصار "لا نتعلم الكلمات أساسا بصفتها أوعية صوتية لها محتوى واضح الحدود وإنما بصفتها أدوات لها هدف معين" (١٨٨٥ : ٧٢). فالكلمات أدوات للتفاعل بين الناس، يستخدمونها للإقناع، وقطع الوعود، ولإرضاء الآخرين، ولنقل المعلومات، ويجب أن نصف دلالتها وفقا لذلك. وقد عبر إيردمان بوضوح عن تبعات إدراكنا لهذه الحقيقة. فأشار أولا إلى أن غموض المعاني متفش في المعجم وليس ذلك مقصورا على تعدد المعاني. فما الذي تعنيه مثلا صفة: "الألماني" (١٩١٠ : ٣) متى يكون المرء ألمانيا؟ قد تلعب صفات عدة دورا في تحديد ذلك: أن يكون مواطنا من مواطني الرايخ الألماني، وأن تكون الألمانية لغته الأم، وأن يكون سليل أسرة ألمانية. عندما تجتمع هذه الصفات الثلاث فلن نجد مشكلة، ولكن عندما لا نجد سوى صفة أو صفتين فعندها يبدأ النقاش. إن النموذج العام الذي يستمده إيردمان من إدراكه لما قلناه آنفا جدير بأن يدفعنا إلي اقتباس قدر أكبر من أقواله بشأن ذلك لأنه يتنبأ بعدد من التطورات اللاحقة في تاريخ علم الدلالة المعجمي (١٩١٠ : ٥):

"الكلمات عموما علامات لعقد غير محددة من التمثيلات الذهنية التي يرتبط بعضها ببعض بصورة غير دقيقة [...] فحدود معاني الكلمات غامضة ومبهمة وغير ثابتة. وأرى أن هذه الحالة يمكن وصفها بصورة أفضل إذا لم نتحدث عن حدود مدى الكلمة وحسب و لكن [...] إذا تحدث المرء عن منطقة حدودية تحد منطقة مركزية في الوسط [...] ونضع في المنطقة الوسطى تلك الأشياء والتمثيلات الأخرى التي يصدق

عليها في كل الظروف أن نسميها أو نعبر عنها بالكلمة التي نتحدث عنها، في حين أننا نضع على منطقة الحدود كل التمثيلات التي قد يصدق عليها الاسم وقد لا يصدق".

وهنا يسهل علينا وصف هذا الغموض على أنه عيب في اللغة وأنه شيء يجب أن نعالجه؛ ولكن إن اتبعنا المنظور الاتصالي، فإنه يمكن أن نفهم مباشرة أن الغموض غالبا غموض حقيقي من الناحية الاتصالية. خذ مثلا ما قاله السياسي الألماني بيسمارك (Bismarck): "نحن الألمان لا نخاف أحدا في هذا العالم سوى الله". يقول إيردمان بأننا لو سألنا بيسمارك (١٩١٠: ٤٦) عما إذا كان ما قاله ينطبق على السويسريين الذين يتحدثون الألمانية أو على البولنديين الذين يعيشون داخل حدود دولة ألمانيا، فلربما أجاب بأنه لم يفكر في كل هذه الفروق أبدا وأنها لا تؤثر على ما قال. وبعبارة أخرى فإن منطقة الحدود التي ليست محددة في مفهوم الكلمة ليست مصدر قلق من الناحية الاتصالية.

٤) يؤكد الاتجاه الرابع للبحث أهمية المنظور "علم التعبير عن المعاني" في مجال علم المعجم. والتفريق بين علم "التعبير عن المعاني" (onomasiology) و "علم معاني الكلمات" (semasiology) تفريق مهم في الإرث الأوروبي من البحث المعجمي بالرغم من أن المصطلحين لا يقعان ضمن المصطلحات العلمية الإنجليزية المعترف بها في مجال علم اللغة. والاقتباس التالي من كتاب كورت بالدينجر (Kurt Baldinger) يوضح الفرق تماما رغم أنه كتاب لا ينتمي إلى الفترة التي نحن بصدد دراستها: **"علم معاني الكلمات [...] يدرس الكلمات المنفردة وكيف تظهر لنا معانيها. أما علم التعبير عن المعاني فيبحث في دلالات مفاهيم معينة؛ أي في مجموعة عبارات تشكل كلا واحدا" (١٩٨٠: ٢٧٨).** وبعبارة أخرى، فإن الفرق بين هذين المصطلحين يعادل الفرق بين "المعنى" و "التسمية": فعلم معاني الكلمات ينطلق من الكلمة بصفتها شكلا ثم يحدد المعاني التي يمكن أن تتخذها الكلمة، أما علم التعبير عن المعاني فينطلق من المفهوم ويبحث في التعابير المختلفة التي يمكن أن تعبر عن هذا المفهوم أو تدل عليه. وبين هذين المجالين اختلاف في وجهة النظر: فعلم معاني الكلمات ينطلق من الكلمة

ويبحث في معانيها وعلم التعبير عن المعاني ينطلق من المعني ويبحث في الكلمات المختلفة التي تعبر عنه.

وقد ظهر مصطلح "علم التعبير عن المعاني" أول مرة في دراسة لأدولف زونر عام ١٩٠٣ كتبها عن أسماء أعضاء الجسد في اللغات الرومانسية (Romance languages)، لكن ذلك لا يعني أن المواضيع المتعلقة به كانت غائبة في الدراسات السابقة. دعونا — ومن منظور تاريخي — نذكر أن إحدى الطرق الواضحة لملء منظور علم التعبير عن المعاني هو البحث في آليات نشوء الكلمات (Lexicogenesis). وهي آليات نستعملها لاستحداث كلمات جديدة ومعان جديدة — وتشمل كل الآليات التقليدية كتكوين الكلمات (word formation) وخلق الكلمات (word creation) (أي خلق جذور جديدة تماما) والاقتراض اللغوي (borrowing) والنحت (blending) والاختزال أو الاقتضاب (truncation) والحذف (ellipsis) أو فقه اللغة الشعبي (folk etymology) وهي جميعا آليات تدخل مفردات جديدة على المحصلة الكلية للتعبير عن المعاني في اللغة. وانطلاقا من هذه النظرة فإن التغير في التعبير عن المعاني يعني التغير في المعجم ككل وليس فقط التغير في معنى الكلمات، ولكن توسيع نطاق المعاني الخاصة بكلمة ما هو في حد ذاته إحدي آليات التغير التعبيري الكبرى؛ أي أنه إحدي الآليات التي من خلالها يرتبط المفهوم الذي نعبر عنه بكلمة مفردة. وبهذا المعنى فإن دراسة التغير في التعبير عن المعاني أشمل من دراسة التغير في معاني الكلمات؛ حيث إن الأول يشمل الثاني في حين أن العكس غير ممكن.

والآن يمكن القول بأن الرسائل والدراسات الكبرى المهمة في معاني الكلمات لعدد من الباحثين بدءا بـ ريسيج (Reisig, ١٨٣٩) وحتى شتيرن (Stern, ١٩٣١) لا تحد نفسها بآليات التغير في معاني الكلمات كالاستعارة والكناية بل تولي اهتماما بآليات التغير في التعبير عن المعاني كالاقتراض وفقه اللغة الشعبي، رغم أنها كانت تركز تركيزا أساسيا على التغير في معاني الكلمات. بل سأذكر في القسم ١,٣,٣ أن عدم التمييز بين آليات علم معاني الكلمات وعلم التعبير عن المعاني بصورة واضحة قد يكون كذلك من أهم المآخذ التي طرحت فيما يتعلق بالتصنيف الدلالي الذي شاع في تلك الفترة. وفي الوقت نفسه ظهر نهج يهتم اهتماما خاصا بعلم التعبير عن المعاني وذلك

على هامش علم الدلالة فقه اللغوي التاريخي الذي طغي عليه الاهتمام بعلم المعاني؛ أي حركة "الكلمات والأشياء" التي بدأها رودلف ميرينجر (Rudolf Meringer,١٩٠٩) وهوجو شوتشاردت (Hugo Schuchardt,١٩١٢).

والفكرة الأساسية هي أن دراسة الكلمات — سواء كان ذلك تأثيليا أم تاريخيا أم من حيث التنوع فقط، تحتاج إلى دراسة الأشياء التي تدل عليها هذه الكلمات. وكما يقول ميرينجر (١٩١٢) في مقال له يعرف فيه مجال اختصاص مجلة "الكلمات والأشياء Wörter und Sachen" التي أصدرها عام ١٩٠٩ فإن "التغير الدلالي تغير في الأشياء وتغير الأشياء تغير ثقافي". إذن فالمنظور الأساسي لا نعبر عنه بسؤالنا "ماذا تعني الكلمات؟" وإنما "كيف نسمى الأشياء ونصنفها باللغة؟" وبالرغم من أن دراسة المفاهيم المجردة لم تكن مستبعدة، فإن التركيز في مقاربة مجلة "الكلمات والأشياء" كان يميل إلى أن يقع حصريا على الأشياء المحسوسة، سواء الأنواع الطبيعية كالنباتات والحيوانات وأجزاء الجسد أو المصنوعة كالأدوات والعناصر الأخرى من الثقافة المادية لمجتمع لغوي محدد أو فترة تاريخية معينة. وحتى ندرس لغة مجتمع زراعي مثلا، فإن ذلك يتطلب معرفة جيدة ببيئتها الطبيعية وتقنيات الزراعة والعادات والتنظيم الاجتماعي الخ. إن المقاربة بكاملها لها في الواقع توجه ثقافي يترجم منهجيا بإنشاء صلات بعلوم أخرى من خلال اهتمامهم بالأبحاث التاريخية وفي مجال علم الآثار. ولقد كان لحركة "الكلمات والأشياء" ومنظور علم التعبير عن المعاني عموما تأثير مهم في تطور جغرافية اللهجات لاسيما أطالس اللهجات التي وضعت – أو على الأقل بدأ اللغويون بوضعها – في العقود الأولى من القرن العشرين. ففي الأطلس اللغوي لفرنسا Atlas linguistique de la France الذي وضعه Jules Gillieron (١٩٠٢ – ٢٠) وأطلس Sprach-und Sachatlas Italiens und der Südschweiz الذي وضعه Karl Jaberg and Jakob Jud (١٩٢٨–٤٠), وأطلس Deutscher Sprachatlas لـ Ferdinand Wrede (١٩٢٧–٥٦) تظهر لنا خرائط التعبير عن معاني الكلمات المستخدمة للتعبير عن مفهوم معين في المناطق الجغرافية التي تغطيها الخريطة.

ورغم أن البحث المنتظم في علم التعبير عن المعاني لا يحتل إلا مكانة صغيرة في سياق علم الدلالة فقه اللغوي التاريخي عموما، فإن له أهمية خاصة في دفع عجلة التطور في علم الدلالة المعجمي. وكما سنرى في الفصل التالي فقد ساد منظور علم التعبير عن المعاني في المرحلة الثانية من المراحل الكبرى في تاريخ هذا العلم، مع أنه اختلف في صورته عن حركة مجلة Wörter und Sachen.

والآن نلخص ما تناولناه في هذا القسم، فقد قدمنا أربع مجموعات من التوجهات النظرية التي انحرفت إلى حد ما عن الآراء السائدة التي ارتبطت بأبحاث بريال وباول (أو على الأقل أضافوا أبعادا جديدة لها). وأولي هذه المجموعات التي تشكل إلى حد كبير موقفا أقدم من موقف بريال وباول حسب التسلسل الزمني لتطور العلم تهتم بالتصنيف المنطقي البلاغي لتغير المعاني دون الاقتراب من علم النفس. والثانية أحدثت تغييرا في وجهة نظر بريال وباول النفسية. وهنا ذكرنا حركة علم نفس الشعب. والأهم من ذلك أولئك العلماء الذين أكدوا دور صور المعنى العاطفية غير الفكرية في تطور مفردات اللغات. والمجموعة الثالثة من الأصوات المغايرة تشكلت من طرق بديلة لملء الجوانب السياقية في الرأي السائد آنذاك: إما بتبني مسار اجتماعي كما في الحركة الدلالية الاجتماعية الفرنسية التي بدأها ميبه أو مسار اتصالي تداولي. وأخيرا أشرنا إلى الوعي المتنامي بالفرق بين منظور علم معاني الكلمات وعلم التعبير عن المعاني كما تمثل في حركة مجلة Wörter und Sachen.

إن اختلافات الرأي و التركيز التي غطتها تلك المقاربات المتنوعة لم تستوعب التنوع النظري داخل المنهج فقه اللغوي التاريخي، لكنها تعكس لنا أهم الميول والتوجهات التي قد تساعدنا على أن نرى شيئا من النظام أو النسق في الكم الغزير من الدراسات فقه اللغوية التاريخية. أما الاختلافات الأخرى فتتعلق بتصنيف التغير الدلالي والذي سنتناوله الآن.

٣/١- تصنيف التغير الدلالي :

إن تصنيفات التغير الدلالي هي النتيجة التجريبية الرئيسة لعلم الدلالة فقه اللغوي التاريخي. وأي دراسة متعمقة من العصر فقه اللغوي التاريخي (وهذا ما لا نهدف إليه

هنا) ستأخذ بصورة أساسية شكل تصنيف لتلك التصنيفات. وبدلا من أن نقدم استعراضا مفصلا لعدد التصنيفات المختلفة للتغير الدلالي المقترحة ضمن المنهج فقه اللغوي التاريخي وصلة بعضها ببعض من حيث المفاهيم ووحدة الأصل، فسنقدم الجهود التصنيفية على ثلاث مراحل مضيفين في كل مرة درجة واحدة من التعقيد. ونقدم في القسم ١/٣/١ عرضا شاملا لبعض أكثر العناصر شيوعا والتي قد نجدها في تلك التصنيفات ونتساءل: ما الظواهر التي سادت دراستها ضمن علم الدلالة فقه اللغوي التاريخي ؟ ويضيف القسم ١/٣/٢ جانبا إضافيا حيث نبرهن على أن علم الدلالة فقه اللغوي التاريخي لا يتوقف عند مستوى معين نجد فيه ظواهر مثل الاستعارة والكناية، بل أيضا يبحث في الأنماط الدنيا للتغير الدلالي. ويركز القسم ١,٣,٣على التخطيطات المفصلة التي ظهرت في المرحلة الأخيرة من تطور علم الدلالة فقه اللغوي التاريخي. وحتى نكوّن فكرة عن هذه الإنجازات التي بلغت الذروة سنختتم القسم بالتصنيف الذي طرحه ألبرت كارنوي (Albert Carnoy,١٩٢٧) والتصنيف الذي تقدم به جوستاف شتيرن (Gustaf Stern,١٩٣١) في مقابل تصنيف كارنوي. هذه القوائم المتقدمة والمفصلة تؤذن بنهاية ذلك العصر. وهي تفعل ذلك بطريقة رمزية جدا: فدراسة كانوي (علم الكلمة) La science du mot معاصرة تماما لهجوم ليو فايسجربر الشرس على منهج علم الدلالة التاريخي (Leo Weisgerber ١٩٢٧) وهو هجوم يعلن بدء عصر البنيوية في علم الدلالة المعجمي.

وقد نشر كتاب شتيرن "المعني وتغير المعني Meaning and the Change of Meaning" في السنة نفسها التي نشر فيها يوست تريير مصنفه الذي عنونه "الثروة اللفظية الألمانية في نطاق فهمها Der deutsche Wörtschatz im Sinnbezirk des Verstandes" وهو أول عمل وصفي كبير في النموذج البنيوي الجديد.

١/٣/١- الأنواع الرئيسة للتغير :

حتى نتمكن من أن نلم بقدر جيد من الظواهر المتنوعة التي قد نجدها في تصنيفات التغير الدلالي، سنفرق بين أربع مجموعات من العوامل. الفرق الأساسي هو بين آليات علم معاني الكلمات وعلم التعبير عن المعاني. فآليات علم معاني الكلمات تتضمن خلق

قراءات جديدة ضمن النطاق الذي تنطبق عليه كلمة موجودة. أما آليات علم التعبير عن المعاني (أو نشوء الكلمات) فتعمل عكس ذلك؛ إذ تتضمن التغيرات التي من خلالها يتم التعبير عن مفهوم بكلمة جديدة أو مختلفة سواء كان لهذا المفهوم قبل ذلك كلمة تعبر عنه أم لا. والتجديد المعنوي يثري الكلمات الموجودة بمعان جديدة، أما التجديد التعبيري فيزاوج بين المفاهيم والكلمات بطريقة ليست بعد جزءا من حصيلة اللغة من المفردات. وضمن مجموعة آليات دراسة المعاني يمكن التمييز أيضا بين أنواع أخرى من التغير المعنوي: التغير في المعنى الدلالي الأصلي أو الإشاري والتغير في المعنى الإيحائي (لا سيما المعنى العاطفي Gefühlswert). وتنقسم أنواع التغير الدلالي إلى التغير القياسي والتغير غير القياسي تبعا لكون المعنى الجديد يكرر معنى كلمة أخرى قريبة كانت أم غير قريبة. بهذه الطريقة يمكن لنا أن نميز بين أربع مجموعات كبرى:

١) التغيرات غير القياسية للمعنى الدلالي الأصلي وتشمل الرباعية التقليدية التالية: التخصيص (specialization) والتعميم (generalization) والكناية (metonymy) والاستعارة (metaphor). ولنا أن نسميها تقليدية أو كلاسيكية؛ لأنها تشكل لب معظم التصنيفات ولأنها مرتبطة ارتباطا وثيقا بما قد نجده في المذهب البلاغي.

والتخصيص والتعميم الدلاليان نوعان من التغير الدلالي المعجمي الذي بهما يصبح للكلمات معان جديدة هي إما جزء من المعنى القديم للكلمة أو تشمله. فإذا كان نطاق استخدام الكلمة ضمن المصطلحات النظرية لتصنيف المجموعات الرياضية مثلا، فإن التخصيص هنا يعني أن نطاق استخدام المعنى الجديد يمثل جزءا فقط من نطاق المعنى القديم. وفي حالة التعميم، فإن المعنى الجديد يتضمن المعنى القديم. ومن حيث المصطلحات فإن تقييد المعنى (restricting) وتضييقه (narrowing) يساوي التخصيص. أما بسط المعنى (expansion) ومده (extension) وتوسيعه (broadening) وقولبته (schematization) فتساوي تعميم المعنى.

ومن أمثلة التخصيص كلمة "حبوب" (corn) (كانت كما رأينا في جزء سابق كلمة عامة تطلق على جميع أنواع الحبوب، والآن خصص معناها للقمح في إنجلترا والشوفان

في اسكتلندا والذرة في الولايات المتحدة الأمريكية). وكلمة "ملكة" (queen) (كانت في الأصل تعني زوجة أو امرأة والآن لا تطلق إلا على زوجة الملك أو المرأة الحاكمة). ومن أمثلة التعميم كلمة "قمر" (moon) (كانت تطلق في الأصل على القمر الذي يدور حول الأرض ثم عمم معناها لتطلق على كل جرم يدور حول أي كوكب) و كلمة arriver في اللغة الفرنسية (التي كانت في الأصل تعني بلوغ ضفة النهر ولكنها الآن أصبحت تعني بلوغ الوجهة أو الغاية عموما كما ذكرنا سابقا). وإذا قارنا بين مثالي "القمر" و"الحبوب" لا تضح لنا أن المعنى الأصلي إما أن تكون له استمرارية الحضور أو قد يكون اختفى بعد ظهور المعنى الجديد.

والكناية (ومنها المجاز المرسل (synecdoche)– ولكن انظر الملحوظة الواردة في بداية القسم ١/٣/٢) – رابط دلالي بين قراءتين لكلمة واحدة مبنية على علاقة القرب والملاصقة (contiguity) بين ما يشير إليه التعبير في كل من القراءتين. فمثلا عندما نقول "شرب زجاجة كاملة" فإن الرجل لم يشرب سوى ما بداخل الزجاجة وليس الزجاجة نفسها؛ أي أننا يمكن أن نستخدم الزجاجة لتشير إلى وعاء معين أو إلى محتوى ذلك الوعاء (الملاصق له أو القريب منه مكانيا). إن مفهوم الملاصقة المذكور في تعريف الكناية لا ينبغي فهمه بمعنى ضيق على أنه إشارة إلى القرب المكاني فقط ولكن يجب أن يفهم بمعنى أوسع على أنه مصطلح عام يشير إلى علاقات مختلفة في المكان والزمان أو السببية. أما الاستعارة فمن الشائع تحليلها على أنها مبنية على علاقة الشبه وليس القرب أو المجاورة.

إن المقابلة بين الشبه والملاصقة الواردة في التعريفين ليست خالية من الإشكالات: فما الذي تعنيه الملاصقة بالضبط؟ رأينا سابقا فيما اقتبسناه من أقوال كوانتيليان أن البلاغة التقليدية تبدو وقد واجهت صعوبة أكبر في تقديم تعريف تحليلي للكناية والمجاز المرسل أكثر مما واجهته في تعريف الاستعارة. والشيء نفسه ينطبق على المنهج فقه اللغوي التاريخي. والحقيقة أن الفضل في شهرة مصطلح ملاصقة (contiguity) يعود إلى أعمال أولمان (Ullmann, ١٩٥٧, ١٩٦٢) التي لا تنتمي إلى الفترة فقه اللغوية التاريخية. وسنبحث في موضع آخر من كتابنا هذا في الجدل القائم الآن حول

الفرق بين الآليتين والأساس الذي تنطلقان منه: انظر القسم ٣/٢/٥. وحتى ذلك الحين سنقبل بالفرق بين مد المعنى المبني على علاقة الشبه وذلك المبني على علاقة المجاورة كتقريب أولي. ولكن يجب أن أضيف ملاحظة أخرى هنا.

إن مشاكل التعريف لا تنحصر في مفهوم القرب والملاصقة. ورغم أن هذا الأمر لا يناقش كثيرا في الدراسات المنشورة، فإننا نلاحظ أن تحديد الاستعارة – من خلال علاقة المشابهة يعد تحديدا بسيطا لدرجة خادعة. تتضح الصعوبة عندما ننظر في التحول الذي حدث لمعنى كلمة مثل الكلمة الهولندية blik مثلا التي كانت في البداية اسما لمادة الصفيح أو التنك (التي تصنع منها الصفائح) ثم استعملت بعد ذلك لتشير إلى علب الخضراوات وما شابهها. لكن العلب يمكن أن نطلق عليها صفائح حتى ولو لم تكن مصنوعة من الصفيح أو أي معدن آخر. هذه التحولات يمكن تفسيرها من خلال علاقة المشابهة، أي أن استخدام الكلمة القديمة "صفيحة" لتشير إلى الشيء الجديد "علبة" (من أي مادة غير الصفيح) يعززه الشبه الوظيفي بين الشيئين. ولكن هل هذه استعارة؟ إذا افترضنا أن الإجابة تميل إلى أن تكون نفيا، فإن تعريف الاستعارة لا بد أن يحدد أكثر بالقول مثلا إن الاستعارة مبنية على الشبه المجازي. وفي الوقت نفسه فإن مجموعة الآليات الأساسية يجب أن توسع بإضافة مفهوم التغير المبني على الشبه الفعلي ليفسر التحول في معنى كلمة "صفيحة". بيد أن هذا الحل يبقى إلى حد كبير مصطلحيا ما دمنا لا نمتلك نظرية للمجازية، أي نظرية تتيح لنا أن نحدد متى يكون معنى معين لأي كلمة مجازيا أو لا (و ربما إلى حد ما).

٢) تغير المعنى غير الدلالي قد يشمل أي نوع من أنواع المعنى الإشاري، ولكن في واقع الأمر – كما ذكرنا آنفا – تتعلق التغيرات في المعاني غير الدلالية التي نوقشت بتوسع كبير في الدراسات المنشورة، تتعلق بالمعنى الانفعالي. والأنواع الأساسية الكبرى لتغير المعنى العاطفي/ الانفعالي (emotive) التي يتم عادة التمييز بينها هي: التغير الانحطاطي (أو التغير بانحطاط الدلالة pejorative change) أي انحطاط المعنى إلى معنى انفعالي سلبي غير محبب أو مستقبح والتغير برقي المعنى (أو المعنى الإعلائي ameliorative change) أي يرقى المعنى إلى معنى محبب. ومن أمثلة تغير المعنى

الانحطاطي كلمة silly التي كانت تعني "يستحق الشفقة/ التعاطف، بائس، لا حول له ولا قوة، أو بسيط" ولكن أصبحت تعني "ساذج أو أحمق". ومن أمثلة التغير الإعلائي تاريخ كلمة "knight" في اللغة الإنجليزية التي كانت تعني "صبي أو خادم" وبالتالي كانت تشير إلى مكانة اجتماعية وضيعة بعكس ما تشير إليه الآن.

وهنا لا بد من الإشارة إلى نقطتين؛ الأولى أن التغير الانحطاطي والإعلائي قد يصحبهما تغير في المعنى الدلالي الأصلي وقد لا يحدث ذلك. إن التحول الذي نقل boor من "ريفي/ مزارع" إلى" رجل فظ أو غير مهذب" هو تغير في الدلالة الأصلية وفي القيمة العاطفية. ولكن ما كان التحول ليكون ممكنا دون نقلة كبيرة تغير المعنى والإيحاءات العاطفية لكلمة boor دون تغيير معناها الدلالي الأصلي. لقد كانت كلمة boor تسمية مهينة تحط من قدر الريفيين قبل أن يفصل الجزء السلبي من قيمتها الدلالية ويعمم ليصبح "رجل فظ ناقص التهذيب"، وذلك بالطريقة نفسها التي تقابل فيها كلمة whore (عاهرة) المستقبحة كلمة prostitute المحايدة (بائعة الهوى) (في حين أن معناهما الدلالي الأصلي واحد). لاحظ أيضا بهذا الشأن أن التغير الانحطاطي والإعلائي قد يتضمنان الاحتفاظ بالمعنى الأصلي: فقدت كلمة boor معناها الأصلي لكن قريبتها الهولندية boer مازالت محتفظة بالقراءتين "مزارع" الأصلية و القراءة المستهجنة "الرجل الفظ غير المهذب".

ثانيا، نحتاج إلى أن نوضح العلاقة بين التغير الانحطاطي والإعلائي من جهة وبين التلطيف (euphemism) والتشنيع (dysphemism) من جهة أخرى. فالتلطيف يعني استخدام كلمة إيحاءاتها محببة أو إيجابية (أو غير مستقبحة) بدلا من كلمة إيحاءاتها سلبية ولهما المعنى الدلالي الأصلي نفسه. وهكذا فإن قولنا "فارق الحياة" أو "انتقل إلى رحمة الله" ألطف من قولنا "مات"، وهذا كالفرق بين "بائعة الهوى" و"العاهرة" تماما. أما التشنيع فهو استخدام كلمة قبيحة المعنى أو مؤذية أو أكثر فظاظة، مثل أن نطلق على المقبرة "ساحة العظام". لاحظ هنا أن التلطيف يفترض قيمة عاطفية معينة في التعبير اللطيف ولكنه لا يغير تلك القيمة. إن استخدام كلمة "بائعة الهوى" تعبيرا لطيفا عن عاهرة يفترض أن للكلمة الأولى إيحاءات سلبية أقل من

الثانية، ولكنها لا تغير هذه الإيحاءات: وإن فعلت فلن يكون ثمة أي أثر تلطيفي؛ أي أنه في الوقت الذي يكون فيه التغير الانحطاطي عملية معنوية تاريخية فإن الأدوات مثل التلطيف والتشنيع هي في المقام الأول خيارات أسلوبية وقتية. ولكن الاستعمال المتكرر لتعبير لطيف يمكن أن يكون سببا في تغير دلالي. وقد يزول الأثر التلطيفي في الحقيقة؛ ويقلل التقييم السلبي لما يشير إليه التعبير بعد ذلك من القيمة التلطيفية للتعبير. لذلك يتم باستمرار إبدال بعض التعابير التلطيفية بأخرى: cripple استبدلت بـ handicapped ثم بـ disabled ثم بـ physically challenged.

ويحدث نمط مشابه مع الأدوات الأسلوبية الأخرى. وأكثرها شيوعا بعد التلطيف والتشنيع هما المبالغة (hyperbole) والتعبير عن الموجب بضده (litotes). أما المبالغة، فهي تعبير مبالغ فيه يصف أو يقيم شيئا ما إيجابيا أو سلبيا، كأن نصف أحدا بأنه absolute genius حتى وإن لم يطرح سوى فكرة ذكية واحدة، أو عندما يحدث العكس فنصف سلوك أحدهم بأنه معتوه حتى وإن لم يكن إلا تصرفا غير حكيم أو أحمق. وأما التعبير عن الموجب بضده فهو عكس المبالغة؛ أي التعبير عن شيء بطريقة مخففة مثل أن نقول "لا يهمني" ونحن نعني "أود ذلك بقوة". والآن في حين أن استخدام المبالغة يفترض مبدئيا قوة سلبية أقوى لكلمة مثل "معتوه" في مقابل "غير حكيم" أو "أحمق" فإن الاستخدام المتكرر لتعبير مبالغ فيه قد يزيل قوتها العاطفية. وهكذا فإن كلمة "هائل" عندما تستخدم لوصف شيء جميل، تكون قد مرت بتغير استعلائي ارتقت فيه من كونها تعني "أمرا مفزعا" إلى أنه "شيء رائع" والرابط بينهما هو استعمال المعنى الأصلي بوصفه صيغة مبالغة.

٣) المجموعة الثالثة هي مجموعة التغيرات القياسية، وتشمل التغيرات الدلالية التي تنسخ فيها الكلمة — إن صح القول — التعدد المعنوي لكلمة أخري. وإذا كانت الكلمتان تنتميان إلى لغتين مختلفتين فهنا يكون قد حصل اقتراض دلالي؛ أي العملية التي من خلالها تقوم الكلمة س في اللغة ص والتي ترادف المعنى الأساسي للكلمة ج في اللغة د بتكرار معنى ثانوي من معاني الكلمة ج. (تعرف هذه العملية أيضا بالنسخ الدلالي semantic calque). فمثلا، الكلمة اليونانية angelos كانت تعني في

الأصل "رسول" لكن معناها تغير فأصبح "ملاك" بأن كررت تعدد معاني كلمة ml'k العبرية التي تعني "رسول بشري، مبعوث" وكذلك "رسول سماوي، ملاك".

ويمكن داخل اللغة الواحدة أن نلاحظ التغيرات القياسية بناء على العلاقات الدلالية عندما يحدث أن امتدادا معنويا في أحد عناصر حقل معجمي تم نسخه من قبل عنصر آخر في الحقل نفسه. ففي الهولندية المعاصرة مثلا نرى استعمال الكلمة zwart [أسود] في عبارات مثل السوق السوداء [بمعنى التجارة غير المشروعة] والمال الأسود [بمعنى المال الذي اكتسب بطريقة غير قانونية وخاصة ذلك المال الذي لا تعلم مصلحة الضرائب به] قد مهد الطريق لحدوث تغير قياسي في معاني أسماء الألوان. فمثلا geld witwassen تعني حرفيا "يبيض أمواله بغسلها" ولكنها مجازيا تشير إلى غسيل الأموال غير المشروعة. وبالمثل تستعمل كلمة "رمادي" لوصف النشاطات التي يتجاهل فيها المرء القوانين والأنظمة رغم أن ذلك لا يكون غير قانوني تماما.

ولا يعني القياس في التغير الدلالي أن آليات المعنى المعتادة لا تنطبق عليه. فتطور معنى كلمة ml'k من "رسول" إلى "رسول سماوي" في العبرية يعُد تخصيصا، ولكن هذا أيضا ينطبق على ظهور المعنى الثانوي لكلمة angelos. إن تعدد المعاني في العبرية قد يكون السبب في ظهور تعدد المعاني في اليونانية، ولكن العلاقة بين المعنيين في اليونانية تقع ضمن نطاق الحالات الأساسية لحالات مد المعنى وتوسيعه.

٤) بالرغم من أن تصنيفات التغير الدلالي المعجمي تهتم بشكل أساسي بالظواهر المعنوية، فسنرى في القسم ١/٣/٣ أنها لا تنجح دائما في رسم الخط رسما واضحا بمنظور تعبيري. ولا يجب أن ننسى بهذا الشأن أن مد نطاق معاني كلمة موجودة هو نفسه واحدة من الآليات الكبرى للتغير في التعبير؛ أي أنه إحدي الآليات التي من خلالها يتم الربط بين مفهوم يراد التعبير عنه بمفردة من المعجم. وبهذا المعنى فإن دراسة التغيرات التعبيرية onomasiological changes أشمل من دراسة التغيرات المعنوية semasiological changes؛ لأن الأولي تشمل الأخيرة في حين أن العكس لا يمكن أن يكون كذلك. من أجل ذلك، دعنا نلقي نظرة سريعة على أهم آليات استحداث الكلمات. أولاً: يمكن استحداث كلمات جديدة عن طريق تكون الكلمات؛ أي بالتطبيق المعتاد للقواعد الصرفية اللازمة لاشتقاق الكلمات و تأليفها. ثانيا: يمكن

تكوين كلمات جديدة بتحويل الشكل الصوتي للكلمة مثل عملية الاختزال (clipping) (بالعربية الدارجة كلمة "نص" من "نصف") أو النحت (blending) ("كهرومغناطيسية" من كهرباء ومغناطيس). ثالثا: يمكن أن نقترض كلمات جديدة من اللغات الأخرى. رابعا: يمكن أن تستحدث الكلمات الجديدة فجأة، مثلا على أساس محاكاة الطبيعة أو أسماء العلامات التجارية مثل كوداك. وخامسا: بالطبع يمكن أن تكون الكلمات عبارة عن امتداد دلالي لكلمات سابقة. ولكن حينئذ عدنا إلى حيث كنا بدأنا.

٢/٣/١- الأنماط الدنيا :

والآن وقد أصبح لدينا دليل على العناصر المهمة التي تجتمع لتؤلف تصنيفات التغير، يمكننا أن نلقي نظرة سريعة على العوامل التي تؤدي إلى وجود اختلافات في التصنيفات. والسبب الرئيس هو أن التصنيفات تختلف في الاهتمام الذي توليه للمجموعات التي ناقشناها. فمثلا نجد عناصر المجموعة الأولى في معظم التصنيفات، ولكننا نجد عناصر المجموعة الأخرى إما أن تكون موجودة جزئيا أو غير موجودة أبدا.

والسبب الثاني للاختلاف بين التصنيفات يكمن في اختلاف آرائهم حول التعريف الدقيق لبعض العناصر. فمصطلح مثل "المجاز المرسل" مثلا قد يفسر تفسيرات مختلفة، وبالتالي يحتل مكانا مختلفا في كل تصنيف. ففي التصنيف البلاغي التقليدي يشير "المجاز المرسل" إلى علاقة البعض بالكل؛ أي ينظر إليها غالبا على أنها نوع خاص من الكناية؛ وهذا مثلا رأي دومارسيه (Dumarsais). إذن، فإحدى نقاط الاختلاف بين التصنيفات هي ما إذا كانوا يضمون حالات المجاز المرسل إلي مظلة الكناية أم لا. ولكننا قد نجد علاقات الجزء بالكل في أماكن مختلفة: فعندما نملأ السيارة، فإن علاقة الجزء بالكل هي علاقة إشارية؛ إذ إنها موجودة بين العناصر التي تشير إليها الكلمة في الحقيقة. ولكن بالنسبة لبعض الباحثين مثل دارميستيتر (Darmesteter) فإنهم يرون علاقة الجزء بالكل على مستوى فكري نظري أيضا. وعليه يمكن القول مثلا بأن معنيي كلمة "قط" تربطهما علاقة الجزء بالكل: فالقط المنزلي الأليف الصغير ذو الفراء جزء من فصيلة القطط التي تشمل النمور والفهود والأسود وغيرها إلى جانب القطط المنزلية. وإذا كان تطبيق علاقة الجزء بالكل هذه على حالات أخرى مقبولا (وهذا غير

واضح أبدا) فإن أمثلة التخصيص والتعميم ستصنف على أنها حالات من المجاز المرسل وهذا في الحقيقة ما فعله دارميستيتر.

والسبب الثالث للاختلاف هو عمق التصنيف ودقته؛ فعندما نتحدث عن تعداد الأنواع الفرعية من الفئات الرئيسة، فإن بعض التصنيفات تحد نفسها بإعطاء أمثلة على الأنواع الرئيسة فقط في حين أن الدراسات التفصيلية تقدم تصنيفات فرعية ودقيقة والتي قد تختلف من تصنيف إلي آخر. وللتمثيل سوف نلقي الآن نظرة على أنماط الكناية التي درسها باول ونيروب وواج وإسنولت. ولنذكر أولا أن التصنيفات الثانوية أو الفرعية لأنواع الكناية مبنية غالبا على تحديد الهدف والمفاهيم التي تمثل المصدر. وهكذا فإن مثالنا عن الزجاجة الوارد في القسم ١/٣/١ يظهر لنا اسم الوعاء (المصدر) وقد استخدم ليدل على محتواه (الهدف)، وهذا نمط يمكن اختزاله كالتالي "وعاء يعبر عن محتواه / وعاء عن محتواه". وباستخدام هذا الترميز الاختزالي يمكن القول بأن الأنواع الأخرى الشائعة من الكناية هي كالتالي: "المكان عما وضع فيه" (كان المسرح كله حزينا) "العصر/ الزمن عما حدث فيه، عمن عاش فيه، عما أنتج فيه" (كان القرن التاسع عشر صناعيا)؛ "المادة عما يصنع منها" (الفلين)؛ "المصدر عما يصدر عنه" (astrakhan)؛ "النشاط أو الحدث عن عواقبه أو تبعاته" (عندما تؤلمك الضربة التي تلقيتها فليس تصرف غريمك هو المؤلم بل الأثر الجسدي على جسدك)؛ "الصفة عن الموصوف" (كلمة "جلالة" لا تشير فقط إلى مكانة ملكية بل إلى الحاكم نفسه)؛ "البعض عن الكل" (اليد العاملة). وقد تعمل هذه العلاقات في الاتجاه المعاكس. فمثلا عبارة "يملأ السيارة" (بالوقود) تبين نوعا من علاقة "الكل عن الجزء".

إذا التفتنا الآن إلى مقارنة بين الكنايات التي وجدناها في أعمال باول ونيروب وواج وإسنولت فقد نحدد أنماط الكناية فيها بصيغ مثل "جزء مكاني وكل مكاني". وهذا يبين أن النمط يعمل في كلا الاتجاهين اللذين قد تعمل فيهما إيحاءات الكناية: جزء عن الكل وكل عن الجزء. (الأسماء التي اخترناها للأنماط لا تتفق بالضرورة مع الصورة التي يحددها بها الباحثون الأصليون. وقد تكون الأمثلة حديثة معاصرة أو أمثلة مأخوذة من مصادر قديمة).

جزء مكاني و كل مكاني (بول؛ واج؛ نيروب؛ إسنولت):

كان توني بلير رئيس وزراء إنجلترا (حيث ترمز إنجلترا لكل المملكة المتحدة)

جزء زماني و كل زماني (واج)

نتطلع إلى غد مشرق (الغد جزء من المستقبل)

المكان و ما فيه (باول؛ واج؛ نيروب؛ إسنولت)

أيقظ الرعد البيت كله (أي الناس الذين بداخله)

الأثر و السبب (باول؛ واج؛ نيروب؛ إسنولت)

Greek phobos 'flight' for 'fear'

حدث بسيط و حدث مركب (باول؛ واج)

أمي تطبخ الأرز (حيث طبخ الأرز يرمز لإعداد الوجبة كاملة)

الصفة و الموصوف (باول؛ واج؛ نيروب؛ إسنولت)

نحتاج عقولا أكثر (أناسا أذكياء)

المنتج و ما أنتج (باول؛ واج؛ نيروب؛ إسنولت)

أنا أقرأ شكسبير الآن (أي أعماله)

الغالب و المغلوب (واج؛ نيروب)

هزم شوارتزكوف العراق (أي الجيش الذي قاده شوارتزكوف)

الحاوي و محتواه (واج) (نيروب؛ إسنولت)

أنا أحب الكأس (أي الخمر)

الوعاء الزمني (أو الزمن الحاوي) و ما حواه (إسنولت)

كان القرن التاسع عشر عصرا دمويا

المادة و ما يصنع منها (نيروب؛ إسنولت)

وضعه في كرتون صغير (أي في صندوق مصنوع من مادة الكرتون)

المكان و ما أنتج فيه (نيروب؛ إسنولت)

كان يلبس الكوفية (نسبة إلى الكوفة)

المالك و ما يملك (إسنولت)

الشهادات العليا أولا (أي من يملك شهادة عليا)

الفعل و فاعله (باول؛ واج؛ نيروب؛)

To author a book

الفعل و أداته (إسنولت)

قلمه أحد من السيف.

اللباس و صاحبه (باول؛ واج؛ نيروب؛ إسنولت)

An old wig

عضو و مجموعة (واج)

"الجندي الألماني" كناية عن الجيش الألماني

هذه القائمة التي سنعود إليها في القسم ٥/٢/٣ تبين لنا أن الكتاب يختلفون في أنماط الكناية التي يحددونها و أن بعض الأنماط (كالجزء المكاني و الكل المكاني أو الأثر و السبب) تظهر أكثر شهرة و بروزا من غيرها. و لكن تبقى حقيقة أن إدراج هذه التشكيلات في التصنيفات أمر مهم في حد ذاته. إذ يظهر لنا أن البحث فقه اللغوي التاريخي في الأنماط الدلالية المتكررة ليس محصورا في الآليات العامة كالاستعارة والكناية، بل يظهر في صورة سعي وراء القوالب الخاصة أكثر من تعدد المعاني. وهذا لا ينطبق فقط على الكناية: ففي البحث عن الاستعارة نلاحظ اهتماما بالأنماط المتكررة الطبيعية الدنيا أيضا. ودون أن نحاول القيام بأي تحليل مقارن من النوع الذي وضحناه للكناية دعونا نلقي نظرة على الأنماط التي ذكرها واج (١٩٠٨). (وجميع الأمثلة بالألمانية وهي لا تقدم إلا جزءا من المادة التي جمعها واج:

<u>الاستعارة المبنية على الشبه من حيث الشكل والمظهر :</u>

يمكن تشبيه الأشياء المحسوسة بعضها ببعض، بحيث يكون الشيء الأكثر شيوعا أو المألوف للناس مصدرا لتسمية (أو وصف) الشيء الآخر؛ أي أن نستعير اسم شيء شائع أو بعض لوازمه لنصف الشيء الآخر. فأسماء أجزاء الجسد مثلا يمكن استعارتها لأجزاء النبات والحيوانات والأعمال اليدوية وتضاريس الأرض؛ فنطلق كلمة "عين" على البقع المستديرة على ذيل الطاووس وأجنحة الفراشات، ونقول ساق النبات، وكبد السماء، وأصابع الشيكولاتة، ولسان النار، أو ألسنة اللهب، ويد الفنجان .

الاستعارة المبنية على الشبه من حيث الموقع البنيوي :

لا يكون شكل الشيء في عدد من الحالات هو أساس الاستعارة، وإنما موقعه ضمن البناء الأكبر الذي هو جزء منه. وإذا قصرنا أمثلتنا مرة أخرى على أجزاء الجسد، فإننا نستخدم كلمة "رأس" لقمة الجبل، علي رغم أنها ليست مستديرة الشكل كالرأس. وعلي النحو ذاته، تستخدم كلمة "قدم" في مثل قولنا "قدم الجبل" لتدل علي الجزء السفلي منه. ونقول بطن الوادي، لأنه المنطقة الواقعة بين جبلين، وعنق الزجاجة؛ لأنها تجمع الاثنين الشبه في الشكل والموقع؛ فهي بين رأس الزجاجة وبطن الزجاجة.

الاستعارة المبنية على الشبه الوظيفي :

إن ما يدعونا إلي استعمال الاستعارة ليس بالضرورة المظاهر المادية، بل يمكن أن يكون أمرا مجردا؛ وذلك عندما تشبه وظيفة المصدر (المستعار منه أو المشبه به) (source) وظيفة الهدف (المستعار له أو المشبه) (target). وهكذا، فإننا نستخدم كلمة "رأس" بمعنى وظيفي للإشارة إلى رأس الدولة، ورأس القوم، ورأس الأمر الخ. وكذلك "الذراع الأيمن" هو المعاون أو المساعد للرئيس. وقد تجتمع أسباب عديدة للاستعارة كما في "رجل الطاولة"؛ فهي وظيفيا منطقة دعم وسند لها، وهي من حيث الموضع تقع في أسفل الطاولة. وكذلك كلمة "جناح" الطائرة فهو يشبه جناح الطائر في الشكل والموضع والوظيفة.

الاستعارة التي تربط المكان والزمان :

يكثر تعدد المعاني بين المجالين: المكاني والزماني، فنقول مثلا: "وقت طويل" و"وقت قصير" و "نقطة في الزمن" و "في اللحظة ذاتها" و "بين المغرب والعشاء". ويمكن كذلك أن نرى كيانا زمنيا على أنه يتحرك ضمن الوقت فنقول: "مر الزمان" و "اقتربت الساعة" و "توالت الثواني". كما أن لحروف الجر المكانية معان زمنية مثل: "في هذا الأسبوع" و "بعد أو قبل ثمانية أيام".

الاستعارة التي تربط المكان بالكم:

تستخدم الكلمات التي تعبر عن الحجم المكاني والموقع المكاني للإشارة إلى الكميات ودرجة القوة فنقول: "خسارة كبيرة" و "همة عالية" و "انخفضت درجة الحرارة" و

"ارتفعت مكانته". ونجد في عدد كبير من الحالات أن الكمية المجردة تنطوي على نوع من التقييم؛ فقد نعبر بالإشارة إلى الحجم المكاني عن مدى حبنا أو استحساننا لشيء أو امتعاضنا منه، وكذلك قد نعبر بالإشارة إلى الموقع المكاني عن حكمنا على مكانة الإنسان أو الشيء فنقول مثلا: "تدنت منزلته" و "شخصية عظيمة (كبيرة)" و "من أصل أو "رفيع المستوى" و "يضع أوسيان في منزلة أدنى من منزلة هومر".

الاستعارة التي تربط بين المجالات الحسية:

تربط استعارة النقل الحسي الجمالي (synaesthetic metaphor) مجالا حسيا بآخر، مثل أن تربط المرئي بالمسموع، كقولنا "أحمر صارخ"، والمسموع بالمرئي كقولنا "نغمة جميلة"، والتذوق بالسمع كقولنا "أغنية حلوة" و "تجربة مرة"، واللمس بالسمع مثل "صوت خشن".

الاستعارة التي تربط الظواهر الجسدية بالفكرية أو المعرفية:

تمثل الأفعال والخبرات البدنية أساسا للحديث عن الظواهر النفسية والذهنية. فنقول "أخذ العلم عن أبيه" بمعنى "تعلم" ونقول "اقتنص الفكرة" بمعنى "وجد الفكرة". و كذلك الفعل "أحس" الذي يشير إلى مجال الحس أو اللمس. ويمكن أن نعبر به عن العواطف والانفعالات؛ كقولنا "أحس بالغضب/ بالحنان" أو "أحس بالخطر". ويمكن كذلك أن نربط المرئي بالمعرفي مثل "رأى رأيا"، والمرئي بالانفعال مثل "اكفهر وجهه"، والمحسوس بالتذوق مثل "نوم لذيذ"، وكذلك المعرفي بالتذوق كقولنا "فكرة لذيذة".

وكما هي الحال مع هذه الأنواع الفرعية من الكناية، فإن الأبحاث التي تجري الآن لدليل على عودة الاهتمام بأنماط الاستعارة كما سنجد في القسم ٥/٢/١. وسنرى فيه أيضا كيف أن مثل تلك الأنماط المتكررة يجري تصنيفها الآن بناء على نمط عام صورته كالتالي: "المستعار له هو المستعار منه" أو "المشبه هو المشبه به" (Target is source). فمثلا يمكن تلخيص بعض الاستعارات التي نطلق فيها حكما تقييميا بالنمط: "الزيادة في الشيء ارتفاع" (More is up) وبعض الاستعارات المعرفية تقع تحت نمط: "التفكير رؤية" (Thinking is seeing).

٣/٣/١- تفاصيل التصنيفين و تعقيداتهما :

يمثل تصنيفا ألبرت كارنوي وجوستاف شتيرن لأنواع التغير الدلالي المرحلة الأخيرة من فترة ازدهار علم الدلالة فقه اللغوي التاريخي. ونجد في الأنظمة التي مثل نظام شتيرن وكارنوي أن الأنواع الرئيسة للتغير الدلالي التي ناقشناها في القسم ١/٣/١ممثلة تمثيلا بلغ أقصى الحدود ومصنفة تصنيفا عميقا: فالأنواع الرئيسة تنقسم إلى أنواع فرعية تتفرع بدورها إلى أنواع ثانوية أصغر وهكذا حتى لا تكاد تنتهي. ومن تبعات ذلك أن أعمالا مثل أعمال كارنوي (١٩٢٧) وشتيرن (١٩٣١) ونيروب (١٩١٣) أو واج (١٩٠٨) تظل مناجم ثمينة تزخر بالأمثلة، ويمكن لأي مهتم بعمليات التغير الدلالي أن يفيد منها: إن غزارة الأمثلة التي تكتنزها هذه الأعمال تظل تبهرنا بغض النظر عن الإطار التصنيفي الذي تتبناه.

ولكن من المعتاد أيضا أن تصنيفات المتأخرين كهؤلاء قد تضم فوارق دقيقة أساسية غير موجودة في التصنيفات الأكثر بساطة مثل تصنيف باول أو دارميستيتر. ففي تصنيف كارنوي نجد أن الفرق الأساسي في تمييزه بين ما سماه "التغير الدلالي النشوئي" (metasemie evolutive) و"التغير الدلالي الإبدالي" (metasemie substitutive) مستوحى من تمييز فونت بين تغير المعنى "المتكرر" (regular) و"الفردي" (singular). فالنوع الأول يحدث بالتدريج وعلى مستوى الجماعة في مجتمع الكلام ككل. بينما الثاني يحدث على مستوى الفرد وبصورة عارضة نتيجة عمل مقصود لأحد مستعملي اللغة. ويتحدث كارنوي عن سمة القصد/ العمد التي تميز النوع الثاني في مقابل الطبيعة العفوية للنوع الأول. وهذا الفعل المتعمد لأحد مستعملي اللغة ما هو إلا محاولة لإيجاد كلمة تعبر عن أفكاره ومشاعره بصورة أوضح وأفضل من الكلمة العادية. وبهذا المعنى بالضبط يشار إلى النوع الثاني بأنه التغير "الإبدالي" (substitutive). أما شتيرن فتتمثل إضافته الرئيسة في التمييز بين أنواع التغير التي تحدث لأسباب لغوية وتلك التي تحدث لأسباب خارجية. وهنا نسأل: كيف تبدو هذه التصنيفات عندما ننظر إليها بتفصيل أكبر وإلى أي مدى تتشابه؟

سنقدم باختصار في الصفحات التالية العناصر الأساسية في تصنيفات كل من كارنوي وشتيرن مع التركيز على التشابه بينها. ويلخص الشكل ١/١ أوجه الاتفاق بين التصنيفين. وقد يكون من المفيد أن نستخدم هذا الشكل علي أنه أرضية تستند عليها في

عرضنا التالي (والذي سيكون مركزا جدا). نجد في هذا الشكل العناصر الأساسية في تصنيف كارنوي على الجهة اليمني والعناصر الأساسية لشتيرن على الجهة اليسري.

كارنوي		شتيرن	
التعميم الدلالي (ecsémie) التخصيص الدلالي (prossémie) كناية عن الأسماء (périsémie) كناية سببية عن الأسماء (aposémie) كناية عن الأفعال والصفات (amphisémie) كناية تحويلية/ نقلية (métendosémie)	التغير الدلالي النشوئي: التغير النشوئي البسيط (Métasémie évolutive: Métasémie simple)	التغير اللغوي غير القياسي غير المقصود (Unintentional non-analogical linguistic (change	الفئة ٥: النقل (Transfer) الفئة ٦: التبديل (Permutation) الفئة ٧: التسوية (Adequation)
التباين الدلالي (antisémie) التماثل الدلالي (homosémie) العدوى الدلالية (sysémie)	التغير الدلالي النشوئي: التغير النشوئي المركب (Métasémie évolutive: métasémie complexe)	التغير اللغوي القياسي غير المقصود (unintentional analogical linguistic change)	الفئة ٢: القياس (Analogy) الفئة ٣: التقليل (Shortening)
التغير الإبدالي الحراكي (ويشمل الاستعارة) (diasémie evocative (incl. métecsémie)), التغير الإبدالي الإيحائي (diasémie appreciative), التغير الإبدالي الكمي (diasémie quantitative)	التغير الدلالي الإبدالي: التغير الإبدالي (Métasémie substitutive: Diasémie)	التغير اللغوي القصدي (Intentional linguistic change)	الفئة ٤: التعيين (Nomination)
		التغير لأسباب خارجية (change due to external causes)	الفئة ١: الإبدال (Substitution)

الشكل ١/١ مقارنة بين تصنيفي كارنوي وشتيرن لأنواع التغير الدلالي

أما الأعمدة الوسطى المظللة باللون الداكن فتبين الأنواع الرئيسة في كلا التصنيفين. وقد وضعناها جنبا إلى جنب لنبرز أوجه الاتفاق؛ وبالتالي نجد أن التغير النشوئي البسيط (metasemie simple) في تصنيف كارنوي يقابله التغير اللغوي غير القياسي غير المقصود (unintentional,non-analogical linguistic change) في تصنيف شتيرن. (بالنسبة لتصنيف شتيرن فقد أعدنا بناء الهيكل العام لأصنافه

الرئيسة بعد جمع الخطوط العريضة له بناء على ما جاء في صفحات كتابه ١٦٦-١٦٩، ١٧٥ و ٣٤٥). والفئات التي في الأعمدة الوسطى تتشعب نحو اليمين واليسار في الأعمدة الأخف تظليلا؛ فمثلا نجد في الصف الثاني أن التغير النشوئي المركب (metasemie complexe) يتفرع نحو اليمين إلى ثلاثة أنواع ثانوية: "التباين الدلالي" و "التماثل الدلالي" و "العدوى الدلالية". وفي الصف الثالث نجد التغير اللغوي القصدي يخصص في الجهة اليسرى بالفئة (٤) وهي "التعيين". والآن لنر ما الذي نجده تحت هذه الأنواع ؟

١) تتفق أول مجموعة فرعية في تصنيف كارنوي للتغير النشوئي – وهي "التغير النشوئي البسيط" – مع المجموعة الأولى من العوامل التي ميزناها في القسم ١/٣/١ ماعدا شيئين: الأول غياب الاستعارة (التي تناولها تحت مسمى "التغير الدلالي" كتغير إبدالي)، والثاني وجود "الكناية التحويلية" (metendosemie) التي هي نوع جديد فيما يبدو. ويقابل مصطلح (ecsemie) التعميم الدلالي ويسمى التخصيص الدلالي بـ (prossemie). أما (perisemie) و (aposemie) و (amphisemie) فتقابل أنواعا مختلفة من الكناية. فـ amphisemie تشير إلى الكناية التي تتناول الأفعال والصفات. وأمثلة ذلك تشمل كلمة circulation بالفرنسية والتي تعني "المرور" (ولا تشير فقط إلى فعل أو عملية المرور، بل تشير أيضا إلى كل ما له علاقة بها من بشر وسيارات) وكلمة authority بالإنجليزية التي تعني "السلطة" (ولا تشير فقط إلى امتلاك صفة القوة والخبرة والقدرة في مجال معين، بل تشير أيضا إلى الإنسان الذي لديه الخبرة والقوة والقدرة). أما (perisemie) (كناية الأسماء) و (aposemie) (الكناية السببية عن الأسماء) فيتناولان الأسماء كالمادة والذات. والفرق بينهما أن الرابط في الأولى (perisemie) بين المكنى عنه (target) والمكنى به (source) رابط ذهني (مثل كلمة "كيس" التي تستعمل كناية عن المال الذي فيه مثل "اشتريته من كيسي" أي بمالي) وأن الرابط في الثانية (aposemie) هو وجود علاقة التبعية أو علاقة المادة بمصدرها مثل كناية الأثر عن السبب والمنتج عن المادة.

إذن يظهر لنا الآن أن النوع الرابع، وهو الكناية التحويلية أو النقلية (metendosemie) يقع خارج نطاق التصنيف التقليدي. ويشمل أمثلة مثل

كلمة plume الفرنسية أو pen الإنجليزية التي كانت تعني ريش الطائر ثم أصبحت فيما بعد اسما لأداة الكتابة بالحبر. ويبدو أن الفرق بين هذا النوع والأنواع المعروفة التي ناقشناها فيما سبق، هو أن هذه الأنواع تنطوي على تحول في المشار إليه. أما الكناية التحويلية، فتظهر تحولا في وجهة النظر أولا ثم تصبح بعد حين تحولا في المشار إليه. فالريشة التي كانت تستخدم للكتابة يمكن النظر إليها على أنها ريشة أو على أنها أداة للكتابة، لكن المال الذي في المحفظة لا يمكن أن يكون إلا مالا وليس محفظة. غير أنه لا يتضح لنا ما إذا كان ذلك كافيا للتمييز بين هذا النوع والكناية؛ ففي النهاية نجد أن الرابط الفكري أو المعرفي بين الريشة بصفتها شيئا والريشة بصفتها أداة رابط كنائي.

أما التغير النشوئي المركب، فيشمل التغيرات القياسية التي ذكرناها في المجموعة الثالثة، القسم ١/٣/١. وقد ميزنا بين ثلاث فئات أساسية بناء على نوع الأثر الذي تحدثه: التباين الدلالي (antisémie) والتماثل الدلالي (homosémie) والعدوى الدلالية (sysémie). فيحدث التباين الدلالي عندما تصل الكلمات إلى مرحلة تتباين فيها معانيها بعد أن كانت متشابهة. فمثلا كانت الكلمتان الفرنسيتان frêle وfragile واللتان تنحدران من الجذر اللاتيني نفسه fragilis مترادفتين بمعنى "قابل للكسر" لكن هذا المعنى ينحصر الآن في كلمة fragile فقط، أما frêle فقد اكتسبت معنى "رفيع، رقيق، هش" المشتق من المعنى الأول. وأما التماثل الدلالي، فيشير إلى الكلمات التي كانت متشابهة جزئيا ثم يزيد الشبه بينها مثل الاقتراض بين اللغات سواء على مستوى المفردات (loans) أو التراكيب والبنى (calques). وتحدث العدوى الدلالية على مستوى النظم (syntagmatic axis): فالكلمات التي تتصاحب كثيرا تؤثر إحداها في معنى الأخرى. فكلمة premises (العقار) الإنجليزية مثلا تكتسب معناها "المباني والأراضي في موقع معين" من خلال إعادة تحليل للتعبير اللاتيني "praemissas mansions" ويعني: "البناء المذكور أعلاه، المباني المعنية" كما هو شائع في عقود البيع الرسمية.

إن التمييز بين الأنواع الثلاثة من التغير الإبدالي (diasemie) مبني على نوع الأثر الذي يراد بالإبدال أن يحدثه. ففي حين يميل التغير الإبدالي الحراكي (diasémie evocative) إلى إثارة رؤية جديدة غير متوقعة للأشياء، فإن التغير الإبدالي الإيحائي

(diasémie appréciative) مبني على الإيحاءات المحببة أو غير المحببة المرتبطة بكلمات معينة. أما التغير الإبدالي الكمي (Diasemie quantitative) فيميل إلى زيادة قوة التعبير عن الفكرة، ويشمل هذا النوع الأنواع التقليدية المعروفة وهي المبالغة (hyperbole أو hypersémie) والتعبير عن الموجب بالضد (litotes أو hyposémie). وأما التغير الإبدالي الإيحائي فيشمل النوعين التقليديين التاليين وهما التلطيف (euphemism) والتشنيع (dysphemism) تحت مسمى (eusemie) و(dyssemie) علي الترتيب.

والتغير الإبدالي الحراكي هو أوسع أنواع التغير الإبدالي، ويشمل ثلاثة أقسام فرعية أهمها الاستعارة (métecsémie أو metaphor). وفي الكناية عن الموصوف (episemie) يؤخذ التعبير الجديد من صفة دائمة أو بارزة من صفات المفهوم أو الشيء الذي نريد الإشارة إليه. فمثلا عندما يشير التعبير (le vert) "الأخضر" إلى الشراب الكحولي الأفسنثين، فقد اخترنا صفة واضحة من صفاته كشعار يعبر عنه. أما في كناية المبالغة (parasemie) فإن مجال المستعار منه والمستعار له أو المشبه والمشبه به واحد: فتستبدل الكلمة بكلمة معتادة من نوعها. ومثال ذلك أن نستعمل –على سبيل الدعابة– الفعل "يخترع" في عبارة "يخترع كعكة" بدلا من "يصنع" وهما كلمتان قريبتان في المعنى. وليس من قبيل المفاجأة أن آليات التغير الإبدالي العمدي تشبه آليات التغير النشوئي غير العمدي. فلربما اعتبرنا المثال "le vert" حالة من حالات الكناية من وجهة النظر التقليدية، في حين أن مثال "يخترع" قد يبدو مثالا للتعميم الدلالي. وإذا كان هذا نوع من التوافق العام فإن الاستعارة هي النوع التقليدي الوحيد من التغير الذي يقتصر عليه التغير الإبدالي: أي من المفروض أن تكون كل الاستعارات عبارات حية اختيرت عمدا وقصدا وتثير معاني جديدة بوجه خاص.

٢) أما في تصنيف شتيرن الذي نتجه إليه الآن، فإن الفرق فيه بين التغير الناتج عن أسباب خارجية والتغير الناتج لأسباب لغوية صرفة مبني على الفكرة التالية: أن نشوء التغير المعنوى في حالات معينة يحركه تغير في الشيء المشار إليه. فالكلمة الإنجليزية (artillery) "مدفعية" كانت في الأصل تعني الأسلحة بوجه عام والأسلحة التي تستخدم لرمي الأسهم والقذائف على نحو خاص كالقوس والمقلاع والمنجنيق. ولأن

الأسلحة المستخدمة في الحروب تغيرت، فقد أصبح المعنى المعاصر يغطي "كل المدافع التي يستخدمها الجيش". فالتغير في الواقع (إبدال شيء معين بشيء آخر) يؤدي إلى تغير في اللغة. ومن الحالات المشابهة لهذا التغير تلك الحالات التي تتغير فيها معرفتنا بالمشار إليه أو تتغير فيها مواقفنا ومشاعرنا تجاهه. فمع تقدم العلوم مثلا تغير المفهوم الذي يربطه الناس بكلمة مثل "كهرباء" و "ذرة".

ونجد ضمن مجموعة الأسباب اللغوية الداخلية أن الفئة الثانية (القياس) تشمل التأثير الدلالي المتبادل بين الكلمات المترابطة شكليا. فيقول شتيرن إن الصفة الإنجليزية fast تحمل معاني تكاد تكون متناقضة: فهي تعني "سريع" من جهة (سيارة سريعة) و "ثابت" من جهة أخرى (عندما لا تكون ألوان القميص سريعة، فينبغي أن تحذر إذا أردت غسلها). وإذا ركزنا على الصفة وحدها فمن الصعب تفسير التحول الدلالي، ولكن الحال من fast "سريع" مرت بمراحل زمنية في تطورها من firmly "بثبات" إلى vigorously, violently, eagerly "بقوة، بعنف، بحماس" إلى swiftly "بسرعة". ولأن التاريخ الدلالي للصفة لا يحتوي على المعنى الوسيط vigorous, violent, eager "قوي، عنيف، متحمس" فيمكننا أن نستنتج بالدليل أن معنى "سريع" قد لحق بالصفة قياسا على معنى "بطريقة سريعة" للحال. إذن فقد استعارت الصفة – إن صحت العبارة – معنى "سريع" من معنى الحال المشتق منها. أما الفئة الثالثة "التقصير" (shortening) فتشمل حالات الحذف كما في اختصار narcissism إلى narcism أو private soldier إلى private (وهو الجندي العادي مقابل كبار الضباط).

ولا يدرج شتيرن تحت فئتي "التعيين" و "النقل" الآليات التقليدية لمد المعنى كالاستعارة والكناية وحسب، بل يضم تحتها أيضا المبالغة والتعبير عن الموجب بالضد والتلطيف والتشنيع. كما يميز شتيرن بين التغير العمدي وغير العمدي مثلما فعل كانوي. وتشير الفئة الرابعة "التعيين" إلى العمليات العمدية، في حين تشير الفئة الخامسة "النقل" إلى العمليات غير العمدية.

وأخيرا يصف كل من "التبديل" و "التسوية" التحول في الكيفية التي يفسر بها مستعملو اللغة العلاقة بين التعبير اللغوي وما يشير إليه ذلك التعبير. فالكلمة

الإنجليزية bead التي كانت في الأصل تعني "صلاة أو دعاء" ثم اكتسبت فيما بعد معنى "لؤلؤة، حبة خرز، كرة صغيرة" وربما كان سبب هذا التحول هو أن السبحة كانت تستخدم عند الصلاة فتبين حباتها الصغيرة عدد الصلوات. وقد لا يتضح لمستعمل اللغة إن كانت كلمة bead في تعبير مثل "to count one's beads" تشير إلى الصلاة نفسها أم إلى حبات الخرز في السبحة. و "التسوية" مفهوم يصف تحولا مشابها في فهم تعبير معين، ولكن يبدو أن هذا النوع يهتم اهتماما أكبر بالتحولات الثانوية؛ أي التحولات التي تلي التحول الرئيس في المعنى. وقد يفيدنا المثال الذي استعمله كارنوي لتوضيح الكناية التحويلية (metendosemie) وسنستخدمه هنا: فبمجرد ما أصبحت كلمة pen تشير إلى أداة الكتابة المعدنية، فإننا سنظل نرى ريشة الكتابة أداة وليس ريشا يغطي جلد الطائر.

٣) عرضنا هذا لا يأتي على كل التفاصيل في تصنيفي كارنوي وشتيرن. فكلاهما يدرج أنواعا أدق ضمن كل نوع يحددانه. لكن ما وصفناه هنا يكفي لمناقشتها باختصار. والفرق الكبير الوحيد بين المبادئ التي قام عليها تصنيف كل منهما هو الفرق بين التغير الناتج عن أسباب لغوية والتغير الناتج عن أسباب خارجية. وفيما عدا ذلك يتضح لنا أن أوجه الشبه بين التصنيفين أكثر بكثير من وجوه الاختلاف. فكلا المؤلفين يطرح تصنيفا ثريا يزخر بالأمثلة والتوضيحات، ويجمع عناصر من الأنواع الرئيسة للتغير الدلالي التي ناقشناها في القسم ١/٣/١ وهي الآليات الأساسية كالاستعارة والكناية والتغير في المعنى الإيحائي والتغير القياسي. وفي الوقت نفسه – وبالرغم من عمق بحثهما واتساعه – فقد عانى فيما يبدو من مشكلة واحدة، وهي خلق التوازن بين منظور علم المعاني ومنظور علم التعبير فيما يتعلق بالتغير المعجمي. وأول دليل على صعوبة إبقاء المنظورين مستقلين هو إدراج التغير الاختزالي (elliptical changes) كما في مثال شتيرن "private soldier". فهل من الأفضل رؤية ذلك بصفته تغيرا في معنى كلمة موجودة أم بصفته استحداثا لكلمة جديدة؟ إن كلمة private بصفتها اسما لم تكن موجودة قبل عملية التقصير أو الاختزال هذه، لذا يمكن لنا القول بأن كلمة جديدة استحدثت. ولكن لماذا عندئذ لا نستحدث آليات أخرى لإنشاء الكلمات، كالآليات التي ذكرناها في القسم ١/٣/١؟ أضف إلى ذلك أن الدافع الذي أدى إلى

التجديدين الرئيسين اللذين وجدناهما في تصنيف كارنوي وشتيرن (الفرق بين التغير العمدي وغير العمدي ومفهوم التغير لأسباب خارجية) هو فيما يبدو طريقة تفكير ضمنية من منظور علم التعبير عن المعاني .

ولننظر أولا إلى الفئة الأولى في تصنيف شتيرن. كيف يمكن لفكرة جديدة في الواقع أن تكون سببا في تغير دلالي؟ إن الرابط من المنظور المعنوي بين القوس والمقلاع والمنجنيق من جهة والأسلحة النارية من جهة أخرى، هو – ببساطة – التشابه الوظيفي: فلا مبرر إذن لطرح فئة مستقلة. وفي الوقت نفسه نجد أن التعديل ليس تلقائيا البتة: واتساع معنى الكلمة القديمة artillery ليشمل الأسلحة الجديدة أو لا يشملها ليس نتيجة تغير واقع الحروب وحسب؛ بل يعتمد دائما على قرار مستعملي اللغة في تصنيف الأشياء الجديدة على أنها شبيهة بالقديمة بدلا من استحداث كلمات جديدة. هنا يأتي دور المنظور التعبيري: فالتغير في الواقع مهم ليس فقط لأنه يسبب تغير المعاني تلقائيا وإنما لأنه يخلق حاجة تعبيرية؛ وهي الحاجة إما لخلق فئة جديدة أو تعديل فئة قديمة.

وبالمثل فإن كون التحولات الدلالية تحدث عمدا أو عن غير عمد (وهو فرق موجود في نظام كل من كارنوي وشتيرن) ما هو إلا عملية تعبيرية في الأساس. وإذا كانت التغيرات العمدية هي تلك التي يتعمد فيها مستعمل اللغة إحداث أثر خاص عن طريق التبديل المقصود لكلمة معبرة جدا أو مفاجئة أو واضحة بكلمة عامة، فإن العمدية أو القصدية (intentionality) تنطوي – في المقام الأول – على عملية اختيار للتعبير أكثر من كونها تحويلا للمعاني. أضف إلى ذلك أننا يمكن أن نشير باختصار إلى وجود أسباب أخرى قائمة بذاتها لتوجيه النقد للتمييز بين التغير العمدي وغير العمدي، بمعنى أن هذا التمييز يتضمن تجزئة أمر هو في الأساس متصل الأطراف ثم قسم إلى قسمين. إن ثمة خطا متصلا بين ما هو قصدي وما هو عفوي غير قصدي. ولكن لأن التصنيف غير قادر على الإحاطة بالتدرجات التي تدخل ضمن هذين النوعين وتتدرج على هذا المتصل حتى تتداخل، فإن اللغوي التاريخي سيواجه صعوبات عملية شديدة في تحديد الموقع الدقيق الذي يجب أن نرسم فيه الخط الفاصل بين الفئات الثنائية على هذا المتصل، فضلا عن عدم قدرته على تحديد الموضع الذي يجب أن يحدد

التغيير فيه على المتصل نفسه. وبقدر ما تهدد هذه الصعوبات الفائدة العملية للتصنيف فإن التمييز بين التغير العمدي وغير العمدي أمر يجب أن نتناوله مع بعض التحفظ.

وختاما أقول: إذا نظرنا إلى كارنوي وشتيرن على أنهما يمثلان – أو على الأقل – أوج أو نهاية المدرسة فقه اللغوية التاريخية، فسنلاحظ نقاط القوة والضعف لديهما. فنرى مادة غزيرة سواء كانت فكرية أو وصفية تتلازم مع ميلهما إلي المبالغة في التصنيف وتبنيهما لغة اصطلاحية خاصة (لاسيما في حالة كارنوي) تتعمد – فيما يبدو – تجاهل المصطلحات المعروفة قبل ذلك. وعلى مستوى آخر أساسي نجد مشكلة اختراق المنظور التعبيري التصنيف المعنوي.

٤/١- ما بعد علم الدلالة فقه اللغوي التاريخي :

بالرغم من أنه لا يمكن للباحثين المعاصرين في كل أنحاء العالم اليوم الوصول إلى معظم الدراسات في علم الدلالة فقه اللغوي التاريخي، فلا يمكن التقليل من القيمة الحقيقية والجوهرية لهذا التراث. لقد كان نطاق إطارها التجريبي عظيما ولافتا للنظر، حتى بمقاييس عصرنا الحديث: إذ نجد أن عددا كبيرا جدا من الأمثلة في عدد كبير من اللغات يوضح مجموعة واسعة من المفاهيم النظرية فيها ويحددها. ولا تحقق الاتجاهات العديدة التي تلت الاتجاه فقه اللغوي التاريخي في علم الدلالة المعجمي القدر نفسه من الوصف (وخاصة عندما يميلون إلى مناقشة المسائل النظرية على أساس مجموعة محدودة من المعطيات). وفي هذا الشأن لا يسعنا إلا أن نشعر بالأسف أن كما كبيرا من الملاحظات المثيرة للاهتمام والظواهر المذهلة من مجال علم الدلالة التاريخي تظل مجهولة إلى حد كبير للباحثين المعاصرين. ونظريا دون أن ننطلق من وجهة نظر وصفية، فإن تفكيرا مشابها ظهر في الأفق؛ إذ سنجد – كما سنرى فيما بعد – أن التطورات الجارية في علم الدلالة المعجمي الآن تمثل إلى حد كبير عودة إلى اهتمامات علم الدلالة فقه اللغوي التاريخي، فكثير من النقاش حول دقائق الاستعارة والكناية أو الخلفية النفسية للمعنى وخباياها في اللغات الطبيعية يمكن أن تكون ذات صلة بالنقاش القائم الآن، وسنعود إلي هذا الموضوع عدة مرات خلال كتابنا هذا.

وبالإضافة إلى إسهام علم الدلالة فقه اللغوي التاريخي في دراسة ظواهر معجمية معينة، فإن لهذه المقاربة أهمية نظرية دائمة؛ لأنها تلفت الانتباه إلى فكرتين ستلعبان

دورا مهما في تقييم أي نظرية لعلم الدلالة المعجمي، الأولى: أن علم الدلالة فقه اللغوي التاريخي يؤكد الحركة الدائمة الطبيعية للمعنى (حركية المعنى): فالمعاني ليست ثابتة لا تتغير، بل تتحول وتتغير عفويا وعلى نحو نمطي حينما تستخدم اللغة في ظروف وسياقات جديدة. ونتيجة للتغيرات الدلالية التي تمر بها، فإن الكلمة تكتسب معاني عديدة. وتعدد المعاني هذا هو الوضع الطبيعي للكلمات بصفته الوضع الناتج عن تلك التحولات الدلالية. ولذلك سوف توطن نظريات علم الدلالة المعجمي نفسها للتعامل مع ظاهرة تعدد المعاني تماما كما فعل علم الدلالة فقه اللغوي التاريخي بأن ركز على الآليات الزمنية/ التاريخية (diachronic mechanisms) التي تؤدي بالكلمة من معنى إلي آخر.

والثانية، أن المقاربة فقه اللغوية التاريخية تثير السؤال التالي: ما علاقة اللغة بحياة العقل عموما؟ إن للغة حتما جانبا نفسيا: فنحن نعيش المعاني بصفتها شيئا في رءوسنا تماما مثلما أن أشكال المعرفة الأخرى ظواهر عقلية/ نفسية. ولكن: هل يصح أن نفعل كما فعل علم الدلالة فقه اللغوي التاريخي؛ أي أن نساوي المعاني بالمفاهيم العقلية بأوسع معنى ممكن؟ هل يصح أن ندرج كل تفاصيل المعرفة التي يمكن أن نربطها بكلمة ما ضمن معاني تلك الكلمة كما فعل إردمان عندما أدخل المعنى الثانوي (Nebensinn) ضمن معاني الكلمة؟ أم أن على علم الدلالة المعجمي أن يقتصد ويستبعد الإيحاءات والمعاني الزائلة أو غير الدائمة ويستثني كذلك المعرفة الموسوعية من مفهوم المعنى المعجمي نفسه؟ ومرة أخرى أقول إن هذا موضوع أساسي يجب أن تتصالح معه أي نظرية لعلم الدلالة المعجمي، وبأنه كان من ضمن المواضيع التي اضطلع علم الدلالة فقه اللغوي التاريخي بالبحث فيها: فكيف يكون المعنى ظاهرة نفسية بالضبط؟

وهنا أقول بأننا إذا تخطينا المزايا الواضحة لعلم الدلالة فقه اللغوي التاريخي وتبنينا موقفا ناقدا، فمن المفيد أن نميز بين النقد الذي يشكك في مبادئ تلك المدرسة والملاحظات التي تقبل الإطار علي أنه أمر مسلم به، لكنها تتفحص الكيفية التي تسير بها تلك المدرسة وفق برنامجها. والموقف الأول يؤدي إلى المرحلة الثانية من مراحل تطور علم الدلالة: فعلم الدلالة البنيوي يرفض اهتمام علم الدلالة فقه اللغوي التاريخي بالبعد الزمني، ويرفض كذلك تصوره النفسي للمعنى. وسنتعرف في الفصل التالي إلى ما

يدفع علم الدلالة البنيوي لنبذ أسس علم الدلالة فقه اللغوي التاريخي. لكننا في هذا القسم سننظر إلى المدى الذي وصل إليه علم الدلالة فقه اللغوي التاريخي في تحقيق أهدافه: فإذا عرفنا الخطوط التي يرسمها والمهام التي حددها لنفسه، فأين تكمن نقاط الضعف؟ وهنا يجب أن نذكر أمرين: منهجية البحث الدلالي وتصنيف التحولات الدلالية.

لقد رأينا فيما يتعلق بالأمر الثاني أن تلك التصنيفات تمثل خلاصة علم الدلالة فقه اللغوي التاريخي. لكن ذلك لا يعني أن تلك الأطروحات لا تقبل النقد، لاسيما أن الخط الفاصل بين منظوري علم المعاني وعلم التعبير ليس مسألة تافهة كما رأينا في نقاشنا لكارنوي وشتيرن.

أما من ناحية المنهجية، فمن اللافت أن المصنفات التي ألفت في إطار علم الدلالة فقه اللغوي التاريخي لا تعتمد بصورة منتظمة على نصوص حقيقية. ونجد في ذلك استثناءات واضحة مثل دراسات هاس (١٨٧٤–٨٠) أو نيروب (١٩١٣) اللذين اعتمدا على مواد نصية حقيقية لتوضيح تحليلاتهما، ولكن يغلب أن تكون أمثلة التغير الدلالي التي يطرحانها ويناقشانها معزولة عن سياقها النصي مع تأكيدهما مسألة التحول في المعنى التقليدي؛ أي التغير الدلالي الذي شاع في اللغة قيد الدراسة. هذا التجاهل النسبي للنصوص الحقيقية لافت للنظر بالنسبة لمقاربة تؤكد الطبيعة العملية للتغير الدلالي كما جاء في آراء باول التي وضحناها سابقا. وبالنسبة أيضا لمقاربة تسعى لتصور مبني على الاستعمال للتغير الدلالي فسيتوقع المرء وجود اهتمام أكبر بالنصوص الحقيقية والقوى المؤثرة التي تسبب حركة المعنى في النصوص. ولكن يبدو أن الأساس التجريبي الاستقرائي للمصنفات فقه اللغوية التاريخية – مهما بلغ اتساعه – يعتمد في الغالب على الاستعمالات المعجمية كما هي موجودة في المعاجم: أي التغيرات الدلالية الراسخة في الأذهان والتي يمكن إدراكها بسهولة وليس على التغيرات العابرة والخاصة التي تحدث في النصوص المنفردة.

ومن الناحية المنهجية، فقد يبدو أن علم الدلالة فقه اللغوي التاريخي كان يمكن أن يستفيد من مقاربة تصاعدية (a bottom-up approach) تبدأ في تحليلها من

المستوى الأدنى إلى المستوي الأعلى، حيث تستخدم المواد النصية استخداما مباشرا تماما من حيث كان سيبدأ المعجمي التاريخي. ويمكن القول بأن الباحثين في علم الدلالة التاريخي لديهم – بصورة غير مباشرة – أساس منهجي في استخدام النصوص الحقيقة، وذلك من خلال اعتمادهم على مادة مستقاة من المعاجم التاريخية، و لكن دراستها مباشرة لم يكن أمرا دارجا كما قد نتوقع.

والأهم من ذلك كله أن ما يلفت النظر في تلك المقاربة التي تركز على آليات تعدد المعاني، أنها كذلك تقيد نفسها كثيرا بالحالات الفردية للتغير الدلالي التي تؤدي فيها قراءة إلى أخرى. والتركيز على مثل تلك الحالات الفردية للمعاني الأصلية (source meanings) والمعاني المولدة أو الجديدة (derived readings) يمنع رؤية البناء الكلي لمعنى الكلمة. وهنا نسأل: كيف تجتمع هذه المعاني الجديدة المختلفة وتتعالق داخل البناء المعنوي الكلي للكلمة؟ يهتم علم الدلالة فقه اللغوي التاريخي ببناء تعدد المعاني، ولكن كيف يبدو هذا البناء بالضبط إذا لم نقصر تحليلنا على الخطوات المنفردة التي تؤدي بنا من معنى إلي آخر، وإذا أخذنا في الاعتبار بدلا من ذلك الصورة الكاملة لكل التحولات التي تحدث داخل البناء الدلالي للكلمة؟ وهل ذلك البناء عبارة عن مجموع تلك التحولات الفردية فقط أم أن هناك مبادئ بنائية تجمع معاني الكلمة بالإضافة إلي وجود الروابط الثنائية الفردية بين القراءات الموجودة والمولدة؟ بيد أن الدراسات المعجمية التي تركز على النطاق الكامل لمعنى كلمة واحدة نادرة في علم الدلالة فقه اللغوي التاريخي. وفي الفصل الخامس سنعرف كيف تعاملت المذاهب المعاصرة في دراسة تغير المعنى مع هذا الموضوع. ولكن سيتوجب علينا أولا الانتباه إلي تطورات علم الدلالة المعجمي التي لم يكن فيها البعد الزمني للدلالة محوريا كما كان في علم الدلالة فقه اللغوي التاريخي.

مراجع إضافية للفصل الأول :

ليس لدينا حتى الآن أي دراسة عامة و شاملة عن تاريخ علم الدلالة المعجمي. والدراسات التي تؤرخ لعلم الدلالة لا تغطي على الأغلب تاريخه من الناحية النظرية والتسلسل الزمني كما يفعل هذا الكتاب؛ بل تميل إلى التركيز على مؤلفين بأعينهم أو على فترات أو حركات فكرية بعينها، والفترة التي تناولها جوردن (Gordon,١٩٨٢) هي الفترة التي تتقاطع كثيرا مع التاريخ الذي تناولناه هنا، لكنه لا يدرس سوى عدد من المؤلفين حتي يصل إلى ستينيات القرن الماضي. واتخذت دراسة كروز (Cruse,١٩٨٦) طابعا متفككا غير متكامل، ومع ذلك ما زال المرجع الدراسي العالمي الوحيد المخصص تماما لعلم الدلالة المعجمي، ولكنه في الوقت نفسه يكاد يحصر تركيزه على الصورة العلائقية من علم الدلالة البنيوي (كما نقدمها في القسم ٢/٤ من هذا الكتاب). غير أن التطورات المعاصرة بدأت تشق طريقها في الكتب المراد بها أن تكون مقدمات عامة في علم الدلالة وعلم المعجم مثل مقدمة آلان (Allan,٢٠٠١) لوبنر (Lobner,٢٠٠٢) وليبكا (Lipka,٢٠٠٢) وكروز (٢٠٠٤) وهرفورد وهييزلي وسميث (Hurford, Heasley and Smith, ٢٠٠٧) ولاسيما التطورات التي حدثت في علم الدلالة المعرفي. ويخصص سعيد (Saeed,٢٠٠٩) بخاصة اهتماما كبيرا بالتوجهات الحديثة في بحوث معاني الكلمات. ونجد أوسع نقاش لعلم الدلالة المعجمي في كتاب بلانك (Blank,٢٠٠١) وهو مقدمة ممتازة في علم الدلالة المعجمي رغم إيجازه، وهو مكتوب باللغة الألمانية، وكذلك في كتاب كروز وهندسنورشر وجوب ولوتزيير (Cruse, Hundsnurscher, Job, and Lutzeier, ٢٠٠٢) وهو مرجع يقع في مجلد ضخم ويتناول كل جوانب علم المعجم. كما تشمل المراجع العامة عن دراسة علم الدلالة المعجمي قائمة مراجع علم الدلالة التي جمعها جوردن (١٩٨٠,١٩٨٧,١٩٩٢) والقائمة التي جمعها جيبر وشوارتز (٨٩ — ١٩٦٢ Gipper and Schwarz,) وذيلاها بشروحهما وتعليقاتهما. أما عن دراسة الاستعارة بوجه خاص فلدينا قائمة المراجع التي جمعها فان نوبين (Van Noppen, ١٩٨٥) وفان نوبين وهولز (Van Noppen and Hols, ١٩٩٠). أضف إلى ذلك مسرد المصطلحات الأساسية في علم

الدلالة والتداولية الذي نشره كروز (٢٠٠٦) وكتابا آخر يضم ١٠٠ مقالة نموذجية تمثل أفضل ما كتب في علم المعجم اختارها وجمعها هانكس (Hanks, ٢٠٠٧) ويضم هذا الكتاب أيضا عددا من المؤلفات التي لا يسهل الوصول إليها.

وأسهل الكتب وأشملها عن الفترة التي تناولناها في هذا الفصل هو كتاب نيرليش (Nerlich, ١٩٩٢)؛ فهو يتناول بالنقاش كل عالم من علماء العصر فقه اللغوي التاريخي في ألمانيا وفرنسا والدول الأنجلو ساكسونية كل على حدة. وقد ألحق كتابه هذا بقائمة مراجع ثرية ترشد الباحث للعديد من المؤلفات الأولية والثانوية التي لا يتسع المجال لذكرها هنا. غير أن الدراسات المسحية الأقدم والتي تعرض تاريخ علم الدلالة فقه اللغوي التاريخي تظل مراجع قيمة.

فمثلا يقدم لنا كروناسر (Kronasser,١٩٥٢) وكوادري (Quadri,١٩٥٢) ملخصات دقيقة ومرتبة ترتيبا موضوعيا للبحث الذي كان موجودا في عصرهما في علم المعاني وعلم التعبير على التوالي، في حين أن دراسة بالدينجر (Baldinger, ١٩٥٧) عبارة عن عرض موجز لعلم الدلالة فقه اللغوي التاريخي. وبخلاف ما فعله كروناسر وكوادري قام أولمان (Ullmann, ١٩٥٧) بتطوير نظريته البنيوية للتغير الدلالي، وكانت تغطيته للدراسات القديمة ممتاز جدا. ومن الأعمال التأريخية المتخصصة كذلك دراسات نوبلوخ (Knobloch, ١٩٨٨) وشميتر (Schmitter, ١٩٩٠) وديسميت (Desmet, ١٩٩٦).

ويمكن أن نجد المزيد من المعلومات حول تصنيفات التغير الدلالي في الدراسات التي ذكرناها للتو. أما الدراسات التي أتت فيما بعد عن التغير الدلالي والمقدمات في علم الدلالة التاريخي، فتحتوي غالبا على معلومات عن المناهج القديمة (ومن الواضح أنهم كذلك يهتمون بالظواهر الدلالية والآليات التي تتفق مع تلك التصنيفات). وهذا ينطبق بوجه خاص على أولمان (١٩٦٢, ١٩٥٩) ودورنسيف (Dornseiff, ١٩٦٦) ووالدرون (Waldron,١٩٦٧) وسابان (Sappan,١٩٨٧) ووارن (Warren,١٩٩٢) وجيرارتز (Geeraerts,١٩٩٧) وبلانك (Blank,١٩٩٧) وفريتز (Fritz,١٩٩٨). وفي حين تواصل هذه الدراسات بحثها تحت التأثير السائد للمنظور المعنوي، فإن المنظور

التعبيري يمكن أن نجده في دراسات جرزيجا (Grzega,٢٠٠٤) وتورنيور (Tournier, ١٩٨٥) الذي يقدم لنا مسحا متميزا لآليات خلق المفردات. ويقدم كل من جريجيل وكليبارسكي (Grygiel and Kleparski,٢٠٠٧) عرضا شاملا ومفيدا لأهم التوجهات في علم الدلالة التاريخي بدءا من القرن التاسع عشر وحتى وقتنا هذا.

أما فيما يخص التطورات التي حدثت قبل القرن التاسع عشر فيقدم لنا مالكيل (Malkiel,١٩٩٣) عرضا تاريخيا للتفكير التأثيلي في القرنين الماضيين مقارنة بممارسة التأثيل في العصور القديمة جدا والعصور الوسطى. ونجد مزيدا من المعلومات الأدق عن العصور القديمة والوسطى في دراسات كلينك (Klinck,١٩٧٠) وهيربرمان (Herbermann,١٩٨١) وديل بيللو (Del Bello,٢٠٠٧)؛ وأمثلتنا التي ضربناها في القسم ١/١ مأخوذة من دراسة كلينك. أما بالنسبة للتاريخ العام للبلاغة فيناقش كينيدي (Kennedy,١٩٩٤) العصر القديم، ويتناول فوماروليي (Fumaroli,١٩٩٩) العصر الممتد من القرن الخامس عشر حتى القرن العشرين. ومما يتصل مباشرة بدراسة الأدوات البلاغية نجد بحث لوسبيرج (Lausberg,١٩٩٠) وهو عمل جبار يعرض فيه مفاهيم البلاغة القديمة وأفكارها.

ويمكن للقارئ الرجوع إلي دراسة ماك آرثر (MacArthur,١٩٨٦) للاستزادة حول تاريخ علم صناعة المعاجم. وهذا العلم يعد على الأقل من حيث المبدأ علما شقيقا لعلم الدلالة المعجمي بصفته مجالا واسع النطاق في وصف معاني الكلمات؛ بيد أن علاقتهما ليست متينة على الدوام عمليا. لكن المناهج النصوصية (corpus-based approaches) في الوصف المعجمي والتي سنناقشها في الفصلين الرابع والخامس تقرب بين المجالين فعليا. ومن المقدمات العامة في علم المعجم والدراسات التي تعرض لنا علم صناعة المعاجم النظري دراسات لانداو (Landau,١٩٨٩) وسفينسن (Svensen, ١٩٩٣) وهارتمان (Hartmann,٢٠٠١) وجاكسون (Jackson,٢٠٠٢) وفان ستيركنبيرج (Van Sterkenburg, ٢٠٠٣) وآتكينز وراندیل (Atkins and Rundell, ٢٠٠٨) وفونتينيل (Fontenelle, ٢٠٠٨) كقراءة مصاحبة. ويناقش آتكينز وراندیل على وجه الخصوص أهمية النظريات اللغوية الحديثة وتطبيقاتها مثل

نظرية النموذج الأول (prototype theory) وعلم دلالة الأطر (frame semantics) وكذلك أهمية التحليل النصوصي (corpus-based analysis) في صناعة المعاجم. وأحيلك أيها القارئ الكريم إلى كتاب كارتر (Carter,١٩٩٨) إن كنت تريد مقدمة في علم المعجم التطبيقي بمعنى واسع يشمل تعليم اللغة وعلم الأساليب بالإضافة إلى علم صناعة المعاجم.